صرخة

مجموعة قصصية

الكاتب
نصر سليمان

"إهداء "

"إلى النفوس المعذبة ..التي تتوق إلى حلم المدينة الفاضلة ..وعندما يتسرب الأمل ..وتستيقظ على قسوة الواقع ..تفر إلى أحضان الماضي ..علها تجد بعض السلوى ..أو تتقوقع هاربة من الأيام التي طغت مادياتها وتوارت روحانياتها وقيمها السامية "

"مقدمة "

صرخة ..مجموعة قصصية تحمل في طياتها خمس قصص قصيرة ..تلامس في مجملها بعضاً من أمراض المجتمع وانحرافاته التي باتت تطغي على حياتنا في الآونة الأخيرة ..وتهدد سلمُنا وأمننا وتكسر بداخلنا رابطة التلاحم والمحبة ..وينفرط معها عقد القيم والمعاني الجميلة التي طالما تغنينا بها ..وكادت أن تصبح ماض وذكرى .

هى صرخة في وجه المجتمع ..تحاول إيقاظه من غفوة ألمت به ..وكادت أن تورده الهلاك وتهدر قيمه ومبادئه ..عسى أن يفيق قبل فوات الأوان ويضمد جراحه ..ويلملم بقاياه ..ويصلح ما أفسده الزمن .

صرخة

التقيت بها في عيادة الطبيب النفسي الشهير بوسط البلد ..وكنت قد اعتدت رؤيتها أثناء زياراتي للطبيب..وهى زيارات متكررة منذ فترة طويلة كادت تربو على سبعة أشهر منذ أن تعرضت للحادث الذي قلب حياتي رأسا على عقب ..وما أخلفه من

تبعات أحاول معالجتها بالجلسات النفسية ..ولفت نظري إليها عينيها الكسيرة وهى تنظر لموضع قدميها ولا تتجاوز بنظرها أرضية العيادة وكأنها في محاولة هروب تتخفى من نظرات الجالسين بمناجاة شيء خفي لا يراه غيرها تحادثه وتستمع إليه وهى لاهية عمن حولها بنظرات تائهة .. ونفسا شاردة ..حتى ظننت أنها مصابة بمرض نفسي أو عقلي عضال وتلك بعض أعراضه ...ولذلك خشيت محادثتها أو بدء حوار معها مع ما يتملكني من فضول في التعرف على علتها ومصابها ..فالطبيب النفسي حالة فريدة بين الأطباء حيث تكتظ عيادته بالمرضى ..ويخشى كل منهم التحدث مع الأخر حيث لا يأمن عواقب هذا الحوار ..ولن تستطيع التفرقة بين عاقل ومجنون ....فالريبة تأخذ بالجميع ولا تجد سوى النظرات الحائرة التي تجوب أركان العيادة ..تتناقل يمينا ويسارا تحملق في هذا وتتفحص ذاك ..حتى أذا التقت عيناك بعين أحدهم لا تجد لك سوى الأرض مستقرا تنظر إليها هروبا من تلك النظرات الكاشفة التي استطاعت اكتشاف تلصصك وتفحصك لصاحبها .

وينفرد الطبيب النفسي بفترات الانتظار الطويلة التي يقضيها المرضى في انتظار دورهم ..فهو ليس مثل أي طبيب يكتشف الداء ويكتب الدواء ويصرف مريضه ..فالطبيب النفسي ثرثار بطبعه ولابد له من استخراج العلة من النفس المعلولة وفي سبيل ذلك يأخذ الكثير من الوقت في اللف والدوران ويأتي بمقدمات ويسرد حكايات ويتضاحك حينا ويعبث حينا آخر..حتى يضع يده على موطن الداء .. وهو في عمله مثل ثعلب ماكر يحتال على فريسته ليوقع بها ..وفي سبيل ذلك يقضي الساعات الطوال في جلساته التي قد تطول أو تقصر ..فعلة النفس أشد وأفتك من علة الجسد .

وقد أتاحت لي فترات الانتظار الطويلة الفرصة أن أسرق النظر لهذه المريضة ذات الجمال الباهت التي تأخذ بالعيون وتجذب أنظارها وتمنعها أن تحيد عن وجهها الذي يشع براءة وجاذبية .. وشد انتباهي إليها هذه الحالة الصامتة الشاردة التي تعتريها ..فلم أسمع لها صوتا ..ولم أري لعينيها اتجاها سوي تلك النظرة المستقيمة نحو أرضية العيادة التي كانت تلوذ وتهرب بها بعيدا عن المتواجدين إلى حيث يغيب فكرها .

كثيرا ما يتملكني الضجر وأصيب بحالة من التأفف وأنا أنتظر كل مريض يدخل إلى الطبيب ويمكث بالداخل حتى أظن أنه لن يخرج ثانية ..وأحاول خلال فترة الانتظار أن اشرد بفكري في أي أمر خارج هذه العلبة التي تكتظ بالمرضى وكأنها ملحق

مستشفى أمراض عقلية وجميعنا ينتظر دوره ليوضع حجرة الخطرين ..وكثيرا ما تحفظت في أن ابدي اعتراضي أو أظهر نوعا من عدم الرضا وأنا أري بعض الأمور التي تثيرني وتكاد أن تطيح بأعصابي ..حيث يتكرر كثيرا أثناء جلوسك في انتظار دورك وقبل دخولك بثواني تفاجأ بزيارة خاصة للطبيب من أحد أقاربه أو معارفه قد تستغرق ساعة من الوقت أو أكثر ..أو يأتي طبيب صديق يتجاوزنا وينفذ إلى داخل العيادة وهو ينظر إلينا وكأننا بقايا أشياء ليست ذات قيمة ..وكثير من مندوبي شركات الأدوية يدخلون على الطبيب ويأخذون من وقته ووقتنا الكثير دون فائدة تعم علينا ..ولا يصيبنا منهم سوى ضغط عصبي يتملكنا ويزيد علة نفوسنا اعتلال.

يزداد حنقي وغضبي وأنا أنتظر الساعات الطوال ..غير أني لم أكن أجرؤ على التفوه بنبت كلمة ..ففي هذه المكان لا تستطيع أن تعبر عما بداخلك أو تبدي اعتراض أو رأى ..فلن تمنع من ذلك .. ولن يرد عليك أحد حديثك ..ولكنك سوف تجد نفسك فجأة محط لجميع الأنظار ..فالجميع هنا ينظر للآخر نظرة شك وريبة ويخشى ردة فعله ..لذلك كنت ابتلع غضبي وأعض شفتيي ..وأحاول التلهي والهروب بخيالي بعيدا عن هذا الجو الكئيب .

غير أني منذ أدركت هذه المريضة ولاحظت حالة الشجن التي تجتاحها ..وعينيها المليئة بالدموع المتحجرة ..وشرودها العميق وكأنها تغوص بداخلها وتبحر في خلجاتها هروبا من واقعها وحياتها .. حتى تكاد تتكور داخل ذاتها و تتلاشى عن الأعين وتذوب في اللاشيء ..تملكني شعورا جارفا للوقوف على ما تعانيه هذه الفتاة الجميلة ..وطغى على تطفل لمحاولة جر أذيال الحديث معها فربما استطعت انتشالها من هذه الهوة السحيقة التي تكاد أن تغرق فيها ..فهناك من البشر ما تشعر نحوهم بشعور خفي لا تعرف كنته أو سببه ..غير أنك تجد نفسك مشدودا إليهم بإحساسك وعاطفتك .. وقد دفعني ذلك لمحاولة التقرب منها و عمدت مبادلتها بعض كلمات التحية..ردتها باقتضاب ولا مبالاة في بادئ الأمر ..ورويدا رويدا بدأت تعتاد تحيتي وتبادلني التحية ببسمة مرسومة .

تعددت زياراتي لعيادة الطبيب النفسي وتبدل شعوري بالملل والضجر بعد اهتمامي بهذه المريضة حتى أصبحت أحرص على الذهاب مبكرا عن موعدي عساى استطيع مبادلتها بعض الأحاديث القصيرة بعدما ربطت الألفة بيننا .

تصادف في إحدى الزيارات أن جاءت جلستي بجوارها ..ورأيت أنها فرصة قد أتاحتها لي الظروف لمحاولة التقرب إليها وكسر الحاجز النفسي بيننا علني أستطيع محادثتها والوقوف على قصتها وسبب مرضها ..وقد كان لي ما أردت ..وتبادلت مع عبير الحديث.. وهذا هو اسمها الذي عرفته لاحقا ..وسردت الكثير عن تفاصيل

محنتها التي تعرضت لها بعد تردد طويل ومحاولات كثيرة منى لبث الطمأنينة في نفسها وزرع ثقتها في شخصي ..حيث علمت أنها ضحية حادث اغتصاب وحشي تعرضت له منذ أكثر من ستة أشهر ومازالت تعاني من تبعاته النفسية والحياتية .

وما أن ذكرت سبب محنتها حتى أجهشت في بكاء مرير.. وأخذت تنظر إلى لاشيء وكأنها تسترجع مشاهد أليمة لهذا الحادث البغيض الذي ألم بها وقضى على حياتها وآمالها وأوردها الطبيب النفسي.

أشفقت عليها بعدما لاحظت تأثرها وسوء حالها ورجوتها عدم الاستمرار في رواية قصتها ..خاصة بعد ما لاحظت نظرات الجالسين مصوبة نحونا ..وبها نظرة لوم وعتاب لتطفلي وإزعاجي لعبير للدرجة التي أوصلتها لهذه الحالة من الحزن والبكاء..فالتزمت الصمت وصوبت نظري للأرض التي أصبحت محط أنظارنا سويا وكأننا نبحث في أعماقها عن مخرج ومهرب مما نعانيه .

شاهدتها في الزيارة التالية ..وحاولت أن اعتذر لها عن تطفلي وما سببته لها من ألم وحزن ..وكنت قد عاهدت نفسي على تجنب الحديث معها مرة أخرى فيما تعانيه من آلام جراء ملابسات هذا الحادث الذي تعرضت له حتى لا أشق عليها كما حدث سابقا ..غير أنها أشاحت بيدها وكأنها تعفيني من الحرج والاعتذار ..و قد عجبت بعدما شاهدتها في حالة تماسك واضحة تختلف عن المرات السابقة ..وشعرت في حديثها بألفة نحوي ورغبتها في سرد تفاصيل قصتها كاملة ..فتركتها تسترسل دون تدخل مني أو مقاطعة أو تعليق ..خوفا من تكرار خطأ سابق ولو بدون قصد ..وجلست استمع لها وهى تروى مأساتها بكلمات مقتضبة يملؤها الإحساس بالقهر ويغلفها العذاب الذي تعانيه .

لاحظت تركيزها الشديد وانتفاض جسدها ونفور عروق رقبتها وهى تروي تفاصيل ما حدث معها في واقعة الاغتصاب ..وكأنها تتذكر المشهد بآلامه وأوجاعه ..وتحاول أن تضعه أمامي صورة حية لواقع عاشته وسكن في أعماقها كشبكة عنكبوت سوداء نسج خيوطه على نفسها وروحها فملأهما ظلمات وحجب عنهما أي ضياء ..وأخذت تسرد حكايتها وتعرضها لهذا الحادث المشين نهارا جهارا وكيف لم يتحرك أحد لإنقاذها من براثن هؤلاء الوحوش الآدمية اللذين طغوا بجبروتهم ووحشيتهم وأوقعوا بالأبرياء وفعلوا ما يحلو لهم من هتك أعراضهم ونهش لحومهم في غفلة من مجتمع تفككت أوصاله و ألهته قضاياه عن تتبع ومعاقبة هذه الفئة الضالة التي أصبحت ترتع وتجوب الشوارع بحثا عن المزيد من الضحايا .

أخبرتني كيف استطاع خمسة ذئاب بشرية أن يجنحوا بها أثناء عودتها من وظيفتها التي تبعد عن مكان بيتها بما يقرب نصف ساعة بالميكروباص ..حيث اغتنمها هؤلاء البلطجية بعد أن هددوا جميع الركاب بما يحملوه من أسلحة بيضاء وأنزلوها بالقوة

ولم يستطع أحد أن يفتح فاه أو يعترض خوفا على حياتهم بعد ما رأوه من جدية تهديداتهم ونظرة الشر في أعينهم .

وبالكاد سمعت صوتها الخافت وكأنه يأتي من المجهول يخالطه إحساس بالمرارة وهي تقول في خزي وحزن دفين ..أخذوني عنوة إلى مكان مهجور وأنا أتوسل إليهم تارة وأحاول الصراخ تارة أخري ..وأبكى واستحلفهم بالله أن يتركوني ويطلقوا سراحي ..غير أن توسلاتي تذهب أدراج الرياح.. فقد صمت أذانهم وحجرت قلوبهم وتبلدت أحاسيسهم ..وسرت روح الغابة وشراسة حيواناتها في طباعهم ..فلم يستجيبوا لتوسلاتي ولم يرحموا بكائي ..وكأن ضعفي يزيدهم حيوانية ويؤجج شهوتهم وقسوتهم ..فما أحسست إلا وهم يجتاحوني الواحد تلو الأخر ..وشعرت بملابسي تنزع عني ويكشف ستري وكأنهم ينثرون أحشائي ويمزقون روحي ..وتمتد أيديهم القذرة تطول كل جزء في جسدي تدنسه وتدمغه ببصمة سوداء من الخزي والعار وكأنها وشم حفر بقوة لتظل ذكراه باقية مع بقاء الحياة ..ورائحة أنفاسهم الثقيلة المتلاحقة تطبق على صدري تكاد أن تخنقني و تغيبني عن وعيي وقد امتزجت بدخان المخدرات التي أطاحت برؤوسهم ..وتلتف أجسادهم اللزجة العطنة حول جسدي كحية رقطاء تمكنت من فريستها ..تنفث فيها سمومها وتشل حركتها لتنقض عليها وتلتهمها التهاما .

وأحاول المقاومة بيدي وقدمي وكل ما أوتيت من قوة ..ولكن هيهات أن تقاوم الفريسة وحوش البرية وقد اجتمعت في حفل جماعي تتراقص حولها وكل ينتظر وجبته ويسيل لعابه عليها ويعمل الجميع على شل حركتها حتى تسكن تماما .

وتكاد أن تأخذني غيبوبة القهر والاستسلام بعدما فقدت كل مقاومة ولم أعد أملك من أمري شيء وأنا أرى نظرات الشراهة في عيون جائعة وأجساد تتلوى في انتشاء ونهم ..واشعر بأجسادهم تغوص في جسدي تقذف في أحشائي قاذوراتهم وأوساخهم في إصرار وتحدي ..وأرقب في أعينهم نظرات انتصار ونشوى بعدما تأكدوا من ذبح فريستهم ..وسالت دمائها تلطخ الجدران وتشهد على جرمهم ..وينطلقوا بعد ذلك في احتفالاتهم بفوزهم والنيل من ضحيتهم ..مخلفين وراءهم إنسانة تلملم بقاياها وتجمع جسدا أنهكه اجتياح آثم ..تحاول ستره ببعض ما تبقي من ملابس ممزقة ..وتتكور حول نفسها كخرقة بالية أطيح بها بعدما دنستها القاذورات وتمزقت أوصالها .

وظلت على هذا الوضع لا تدري كم من الوقت مضي حتى عثر عليها بعض الأهالي وقاموا بسترها وتوصيلها إلى منزلها وهى في هذه الحالة المتردية ليفاجئ زوجها بما حدث لها وينتابه حالة من الذهول والبكاء ولا يستطيع معها فعل شيء سوى إبلاغ الشرطة بما حدث لزوجته وهو يكاد أن ينتحر داخليا ..وتنتابه حالة من القهر

والغضب وشعورا بـا لخـزي والعـار ..وبغير ذنـب جنـاه يجد نفسـه ضـحية يواسـي فريسة على غدر أصابهما في لحظة لم تدر بخلدهما ولم يتخيلا حدوثها .

وتستكمل عبير حديثها واصفة حالة الشرود والقهر التي أصابتهما وظلت مسيطرة عليهما ولم يجدا منها مخرجا ..ويحاول كل منهما تفادى نظرات الأخر والهروب بعيدا كلما التقت أعينهم ..وكسر بينهما رباط وأقيم حاجز ضرب بساتر جعلهما متنافران متباعدان .. فكلاهما يدرك أنهما ضحية وبحاجة إلى مواساة بعضهم بعضا ..ولكن كيف ذلك والنفس عليلة وقد ضربت وتهاوت أمام الفاجعة التي هزت أركانهم وهدمت ما تبقي من أحاسيسهم .

لم يطل الأمر كثيرا ..فلم يستطع الزوج تحمل هذا الموقف وتبعاته ..وأخذ أبنتهم وترك البيت عله يستطيع تضميد جراحه ويحاول النسيان بعيدا عن زوجته التي تذكره رؤياها بالعار الذي لطخه وهز رجولته وهد أركان حياته .. وترك زوجته تعاني بمفردها آلام الذكري واسترجاع تلك اللحظات القاسية التي قتلتها وهي مازالت على قيد الحياة ..وتعاني آلام فراق ابنتها الصغيرة ..وتخلي زوجها عنها في محنتها وهى في أشد الحاجة إليه بعدما تغلبت عليه شرقيته وآثر الفرار والنجاة بنفسه من هذا الجحيم .

استمعت إليها وأنا شارد الذهن ..مطأطئ الرأس ..وما أن أنهت حديثها حتى رفعت رأسي ونظرت إليها مليا.. وزفرات حارة تنطلق من صدري ..ولسان حالي يقول لها ..لو أمعنتي النظر في وجهي ..واستشعرتي ثورة مشاعري ..لأدركتي أني هذا الزوج المطعون في رجولته وكرامته .

حاولت مواستها ببعض الكلمات غير أني أصبت بخرس أثقل لساني .. ولم استطع النطق بنبت بكلمة ..فأي العبارات يمكنها أن تداوي جرح هذه المسكينة ..وتحيي إنسانة فقدت حياتها وآمالها وطموحاتها وإحساسها في لحظة سوداء ساقها القدر ..وأي علاج وطب يستطيع معالجة هذه النفس التي وئدت دون ذنب جنته .

ترقرقت عيني بدموع الشفقة على هذا الملاك الذي توشح بسواد الخزي والعار ..وانتابني شعورا جارفا أن أضمها إلى صدري وأربت على كتفيها أزيل عنها خوفا ورعبا تملكها ..وادفع عنها حزنا دفينا أمتزج بوجدانها .. ومرارا أكاد اشعر بطعمه في فمي ..يا لا المسكينة التي قاست من ويلات تجربة قاتلة أطاحت بها وبمستقبلها وحياتها .

نظرت إليها نظرة حانية وربت على يديها في رفق وتركتها ودخلت حجرة الطبيب ..فقد أخذنا الحديث ومر الوقت سريعا وجاء دوري و موعد جلستي .. بادرني

الطبيب بسؤالي عن أحوالي ..وكنت لازلت متأثرا بقصة عبير وما حدث لها ..وكانت إجابتي صمت تام ووجه عابس ونظرات حزينة ..فقد استطاعت عبير بقصتها أن تستحضر الماضي وأوجاعه و تقذف بي إلى غياهب الحدث الذي أحاول الهروب والعلاج منه منذ أشهر عديدة ..ولا زلت حتى الآن أعاني ويلاته ولا استطيع الفكاك من آلامه ومعاناته التي تحاصرني ليل نهار وتعصر قلبي وتكاد تطيح بعقلي .

نظرت مليا لطبيبي وصرخت في وجهه ..كيف لي بعد هذه الشهور الطويلة والجلسات الكثيرة ولازلت أعاني ما أعانيه ..ولا أشعر بأي تحسن أو تقدم في حالتي ..و عاصفة من الجنون تتملكني كلما تذكرت الواقعة التي مررنا بها ..وتكاد نظرات زوجتي وولدي أن تقتلني ..واشعر بنفسي أتضاءل أمامهما وكأني قزم قارب الأرض ..وكثيرا ما تمنيت أن أتلاشى تماما واصبح عدما ..حتى جاءت قصة عبير لتقضي على ما تبقي لي من صمود ..وتقوض بقايا إنسان قبل أن يلملم نفسه ..وسؤال يثور داخلي ..أي ذنب جناه الأبرياء حتى يقعوا ضحايا لشياطين البشر؟ ..وأي جرم فعلوه حتى تكسر نفوسهم وتذل رقابهم مع أقرب الناس إليهم ممن يحبونهم ولا يستطيعون البعد عنهم أو إبعادهم ؟

أخذ الطبيب يهدئ من روعي بعد أن هاله رد فعلي وفوجي بعصبيتي الزائدة ..ويبدو انه كان يتوقع بعض التحسن والسير في طريق الشفاء غير أنه وجد العكس والحالة تزداد سوء ..و ظهر الامتعاض على وجهه ..وحاول أن يتمالك نفسه ويرسم بسمة على شفتيه .

أخذ يدي برفق لأستريح على الشازلونج وطلب مني أن أتمدد واخذ نفس عميق ..وناولني بعض الحبوب المهدئة ..وأخذ يوجه لي بعض الأسئلة في صورة محادثة ودودة ..وأنا أجيبه ببرود وتأفف ..فقد مللت مثل هذه الأسئلة وتكرارها وتلك الحوارات التي تعود بي إلى الماضي الذي أحاول نسيانه ولا تأخذني خطوة نحو طريق الشفاء .

تذكرت مع الطبيب ما لم أستطيع البوح به إلى عبير والجم لساني عن الخوض في تفاصيله معها ..فقد تحدثت عبير عن زوجها الذي تركها وآثر الفكاك بنفسه من أن يحيا هذه الحياة التي تشعل النار في جسده وعقله كلما رآها أمامه وتذكر ما حدث لها

.. خشيت أن أنهار أمامها و أهين رجولتي في حضورها و أخبرها أنني هذا الزوج المطعون في شرفه وكبرياءه ..وتوقعت استفسارها عما أعنيه بذلك .. وهو ما لم أستطع تحمل سرده وإظهار عجزي وضعفي أمامها .. ولذلك آثرت الصمت ..فربما فاقتني قوة واستطاعت البوح بمكنون نفسها وسرد تجربتها وفجيعتها في زوجها وأهلها ..غير أني لم أتمكن من محاكاتها في قدرتها وتحملها ..فشرقيتنا تمنع الرجل أن يظهر ضعفه حتى وان كان هذا خارج عن إرادته .

أجبت على أسئلة الطبيب الكثيرة والتي تعيد تلخيص ما حدث لنا أنا وزوجتي وولدي البالغ من العمر عشر سنوات ..و سردت الأحداث بتفاصيلها البغيضة وكأنها حدثت بالأمس القريب ولم يتغير إحساسي بها ..ولم يلتئم جرحها رغم العلاج النفسي والفترة الطويلة التي مرت عليها ..وأشعر بطعنات تخترق قلبي وتستنزف رجولتي وكبريائي كلما تذكرت اعتراض هؤلاء البلطجية طريقنا وإشهارهم أسلحتهم في وجوهنا ..و تجريدنا من أموالنا.. وسرقة مصاغ زوجتي وحقيبة يدها بطريقة فظة وعنيفة ..وأنا أقف لا أحرك ساكنا رغم ما يعتريني من غيظ وحنق ..وحالة من الشلل الفكري تصيبني وتمنعني من أخذ موقف تجاه ما يحدث ..وأنتظر الدقائق تمر وينتهي هذا الحدث من تلقاء نفسه ..غير أن الوقت يمر ثقيل ولا يبدو له من نهاية .

أحاول احتضان ابني والتهدئة من روعه بعدما أصابه الخوف والهلع وأخذ جسده الصغير يرتعش وتسيل الدموع من عينيه .. وبيدي الأخرى أحوط على زوجتي بعدما رأيت نظراتها المستنجدة الممتلئة رهبة وخوف عندما استشعرت أن الأمور بدأت تخرج من أيدينا ..وأننا أصبحنا ريشة في مهب الريح تتقاذفها أينما شاءت.

تمنيت أن ينتهي الأمر عند هذا الحد ..وخشيت ردة فعل هؤلاء البلطجية حال وقوفي ضدهم أو محاولة صدهم ..غير أن ما خشيته قد حدث ..وامتدت أيديهم في وقاحة تسلب ما ترتديه زوجتي من حُلي في يديها ورقبتها من خواتم وسلاسل ذهبية ..والمح تلك النظرة الشرهة في عيونهم وهم يخلعون عنها سلسلة حول رقبتها ..وتمتد يد احدهم تلامس صدرها في وقاحة وتحدي .

تثور رجولتي ..ويأخذني غضبي المكبوت نحو دفع هذا البلطجي بعيدا عن زوجتي حتى كدت أن اشتبك معه وألكمه في وجهه ..وفي لحظات معدودة يكشر الجميع عن أنيابهم ويتحولوا إلى مجموعة من الوحوش الآدمية تحيط بنا ..وقد أثار فيهم مقاومة الضحية تعطشهم للدماء وفتح شهيتهم للافتراس وإشباع جوعهم ..فقد أخرج أحدهم مسدسه وأطلق رصاصة استقرت بجوار قدمي ..وقفز الأخر سريعا ووضع سكينه

فوق رقبة أبني مهددا بذبحه ..وأشهرت المطاوي تلمع في وجهي ..وتسابقت لعناتهم وسبابهم بألفاظ تمنيت الصمم حتى لا تخترق أذني ..وتلتها صفعاتهم وركلاتهم التي انهالت على وجهي وجسدي ..وتعالت صرخات زوجتي وانهمرت دموع ولدي وهو يرى والده وقد أطيح به وتقاذفته الأيدي والأرجل ..ونكاية في إذلالي قام احدهم بصفعي على "قفاي "عدة صفعات رنانة ..وهو يضحك وتزداد ضحكاته الهستيرية ..متهكما من تهوري ومحاولة مقاومتهم ..وحتى لا تأخذني رجولتي مرة أخرى واعمل فيها "دكر "حسب قوله .

حاولت أن أتماسك ولا أبدي أي مقاومة حتى يمر الأمر بسلام دون خسائر جسيمة لا يمكن تعويضها ..ومنعني خوفي على ولدي وزوجتي من الدفاع عن رجولتي أمام هؤلاء المجرمين اللذين انعدمت في قلوبهم مشاعر الإنسانية والنخوة ..غير إنه وبعد أن استولوا على كل ما لدينا وقاموا بإذلالنا وتهديدنا بأسلحتهم .. لمحتهم يتهامسون وقد بدت الشراهة في عيونهم وهم يتبادلون الإشارات بين بعضهم البعض ..وسرعان ما قام أحدهم بجذب زوجتي من ذراعها عنوة ..وحاول المضي بها بعيدا ..وهى تصرخ وتحاول أن تنفلت من بين يديه بعدما أدركت مغزى إشاراتهم والنية التي أنتوها ..وعلت صرخاتها ودوت في المكان ..وسارع احدهم ووضع يده على فمهما يحاول إسكاتها ..وينتفض زميله الآخر لمساعدته ومحاولة إخماد حركتها وشل مقاومتها .

تثور الدماء في عروقي ..وأندفع نحوهم في هجوم انتحاري محاولا إنقاذ زوجتي من براثينهم ..وإذا بضربة على مؤخرة رأسي تغيبني عن الوعي ولا أدري من أمري شيء ..وأفيق بعد فترة من الزمن لا أعلم طالت أم قصرت على صوت بكاء ونحيب يصم الآذان .. وأجد زوجتي مكومة بجانبي وقد تمزقت ثيابها ..وتورم وجهها وجسدها من ضرباتهم لكسر مقاومتها لهم .. و دموعها تنهمر بلا توقف ..و يقف بجوارها أبننا يحتضن رأسها ولا يكاد يقوى على الكلام وهو ينازع أنفاسه من البكاء خوفا وهلعا مما رآه .

أدركت على الفور من نظرة زوجتي المنكسرة ..وحالها الذي بدت عليه ..أي مصيبة قد حدثت ..وأي كارثة ألمت بنا .
شاركت زوجتي وولدي بكائهم ونحيبهم وحاولت لملمة بقايانا بعدما أدركت أن المصاب جلل ..وأن كرامتنا وشرفنا تم ذبحهما بمقصلة العار دون رحمة أو شفقة .

حاولت أن أخبر عبير وهى تسرد حكايتها أنى ذلك الزوج المطعون الذي تتحدث عنه ..غير أني لم أجبن و لم أخذل زوجتي وأتركها تعاني بمفردها ..و بقيت بجوارها أتجرع مرارة اللحظات التي مرت بنا .. وينهش جسدي إحساس قاتل بالعجز وفقدان الرجولة ..حتى أصبحت أتحاشي تلاقي أعيننا .

يا لـه من إحساس قاتل يتملكك ..عندما تدرك عدم مقدرتك على حماية من تحبهم ..وعجزك عن الدفاع عنهم ..بينما الأيدي القذرة تستبيحهم أمام عينيك وتجرف أجسادهم كيفما شاءت ..الموت يتسلل إلى نفسي وأنا أرى انكسار عين زوجتي ..وقد تحطمت تماما منذ ذلك اليوم ولم ولن تعود لحالتها وطبيعتها ثانية ..فقد استطاعت هذه الحادثة التي لم تستغرق سوى دقائق معدودة أن تقضي على حياتنا وتدمر نفوسنا وتجعل منا أشباح خاوية تعيش بلا مشاعر أو أمل .

وأتأمل حال ولدي وهو في مقتبل حياته وقد صدم بهذا الحادث البشع الذي عرى أبيه وأمه أمامه وقتل قدوتهم في نفسه ..وأزال عنه غطاء الحماية والأمن اللذان يترعرع الأطفال في ظلهما ..وبات الانطواء طبعه والخوف والجزع صفاته . .وزاغت نظراته وشرد عقله بعد ما كان لعبه ولهوه يملئ البيت صياحا وهرجا ..وكانت ضحكاته تضفي على البيت دفئ وحب ..وقد تحولت إلي صرخات يطلقها في كوابيسه تؤرق نومه وتنزع دمعه .

وماذا بعد أن رأي والده في هذا الموقف المهين ..وهو يتلقى الصفعات والركلات ولا يستطيع دفعها عن نفسه ..فقد كسر الأب بداخله واهتز مثله الأعلى ..وسقطت مظلة الحماية التي كان ينظر لها بإكبار.. وتهاوت صورة والده التي كان يباهي بها أصدقاءه وأقرانه ..خاصة بعدما تجردت أمه أمامه من ثيابها ونهش عرضها ذئاب بشرية تجردت من كل معاني الإنسانية ....يا للهول أي مصيبة تلك التي أعانيها ..وأي مصاب قد أصابني ..وكيف لي الخروج من ظلمة البئر السحيق .

تذكرت مع الطبيب الواقعة كاملة وأنا أجيبه على أسئلته المعادة .. وبكيت بكاء مريرا بين يديه ..فقد عادت بي الأحداث بصورتها الكاملة بعدما ظننت أنها بدت تتلاشى ..ويبدو أن قصة عبير قد أحيت ذكراها وأيقظت مشاعري ..فقد نكأت جرحا غائرا ومزقته بمشرطها ونزعت قشرة كادت أن تحجبه .

حاول الطبيب أن يهدئ من روعي ببعض الكلمات المطمئنة والنصائح الغير مباشرة ..وتناول قلمه وكتب قائمة أدوية وعلاجات وناولني إياها مطالبا المداومة على تناولها .. وأدى واجبه تجاه حالة مرضية ..واعتدل في جلسته في انتظار الحالة التالية .

خرجت من العيادة أجر قدماي .وطعنات تقطع كبدي بعدما هاجت مشاعري وألهبت أحشائي ..فقد تذكرت فاجعتي ومصيبتي التي أحاول الهروب منها ..والتي تلاحقني ذكراها وتبعاتها كل لحظة أعيشها ..ولا أكاد أجد منها فكاك ..ولا أحد يشاركني هذا البلاء ويحمل عنى بعض تبعاته ..فالمصاب مصابي وأنا وحدي من يكتوي بناره

..فقد أبت رجولتي أن أشرك أحد من أهلي أو أقاربي معي في تحمل تبعات هذا الحدث ..ولم أجرؤ على الحديث عما ألم بنا..واكتفيت بذكر تعرضنا لحادث سرقة وهجوم مسلح من بلطجية قاموا بسلب أموالنا ..واكتفيت بهذه النقطة ولم استطع الخوض في أكثر من ذلك حتى مع أقرب الناس لنا حتى لا أتعرى أنا وزوجتي مرة أخري أمامهم ..ويكفينا ما نعانيه من إحساس قاتل وشعور مرير ..وشددنا على ولدنا أن لا ينطق بكلمة مما رآه وسمعه ..وحاولنا معه بكافة الطرق حتى يحافظ على هذا السر القاتل .

تمر الأيام وأنا أتردد على عيادة الطبيب ليجد لي علاجا يزيح عني هذا الإحساس القاتل الذي دفعني كثيرا للتفكير في الانتحار للهروب من هذا العذاب الذي أرق مضجعي ..غير أني أتراجع في اللحظات الأخيرة..ولا أدري سببا لهذا التراجع ..فالموت يلاحقني كل يوم مع نظرات ولدي.. وكلما تلاقت عيني بعين زوجتي .

تحاشيت الحديث مع عبير بعد محادثتي السابقة معها ..وحاولت الهروب من نظراتها المستنكرة مجافاتي لها دون سبب تعلمه ..فقد أسهبت في ذكر تفاصيل الاعتداء الوحشي الذي تعرضت له ..ونقلت بذلك صورة حية أمام عيني لما حدث لزوجتي وأنا غائب عن الوعي دون قصد منها ..وهو ما حاولت كثيرا أن أتحاشي التفكير فيه ومعرفة تفاصيله حتى أني لم أحاول سؤال زوجتي عما فعله هؤلاء المجرمين بها خشية عدم تحملي هذه التفاصيل المميتة ..وتحاشت زوجتي أيضا الخوض معي في هذا الأمر وكأنه أتفاق غير معلن بيننا على حجب ما حدث معها ..وكنت أجد في ذلك بعض الراحة والهروب من أحداث لا أحتمل تخيلها .. ويكفيني ما أعانيه من معرفة النتيجة التي وصلت إليها وقيامهم باغتصابها عنوة تحت تهديد السلاح .

وجاء حديث عبير بذكر تفاصيل ما حدث معها ..وكأنها تضع أمامي مشهد اغتصاب زوجتي الذي فاتني مشاهدته وأنا فاقدا لوعيي ..وتوقظ داخلي ماردا انطلق يحطم ما حوله وكل ما تطوله يداه ..وشرع في البداية يحطم ذاته ..ويقضي على ما تبقي من أمل في استعادة حياته ..ولملمة ما تبقي منها.

تتابعت زياراتي للطبيب ..وتصادف أن رأيت عبير في عدة مرات وهى جالسة تنتظر دورها في العيادة ..ولاحظت وجهها وقد أزداد شحوبا ..وازدادت نظراتها شرودا .

أشفقت عليها ..ورغم ما أعانيه حاولت أن أتجاذب معها أطراف الحديث ..وحرصت كل الحرص عن الابتعاد عن الخوض في الواقعة التي حدثت معها حتى لا أجدد أحزانها ..وأستعيد ذكرياتي كما حدث سابقا .

أزاحت عني بوجهها في بادئ الأمر ..ثم عاتبتني على استحياء لإهمالي لها وتحاشي الحديث معها بعدما وثقت بي وباحت بمكنون نفسها والأحداث التي مرت بها ..ولما لم تجد ردا يريحها أو إجابة لاستفساراتها ولمحت الحيرة في عيني ..فوجئت بجرأتها وطلبها أن نتحدث سويا في مكان آخر خارج هذه العيادة ..حتى يمكنها أن تسمع مني وأستمع لها بعيدا عن تلصص الأعين واستراق سمع هؤلاء المرضى ..وتعللت بشعورها نحوي بمشاركتي لها مصابها وإحساسي بها ..وثقتها في شهامتي ورجاحة عقلي وربما تجد عندي بعض الحلول لما تعانيه من مصاعب استجدت في حياتها .

وافقتها الرأي وذهبنا سويا إلى كافيتريا قريبة وأنا لا ألوى على شيء ...وجلسنا كلانا في صمت ربما نتوجس خيفة من بدء الحديث والمسار الذي يمكن أن يأخذنا إليه .

قطعت عبير الصمت بيننا وفاجأتني بسؤال مباغت عن مرضي وسبب ترددي على الطبيب النفسي والعلة التي أعانيها ..أسقط في يدي ..وبدا على وجهي التردد في الإجابة وتلعثمت كلماتي ..غير أني شعرت براحة أن أطلق لنفسي العنان في البوح بما أعانيه وسرد تفاصيل ما حدث معي ..فقد عانت مما أعانيه ويمكنها أن تتفهم مشاعري وأبوح لها بالسبب الذي جعلني أتحاشى الحديث معها بعدما نكأت جراحي في حديثها السابق عن حادث اغتصابها .

أفضت في ذكر تفاصيل الواقعة التي حدثت معنا وأحداثها التي قضت على حياة أسرتي بعدما اغتصبت زوجتي وأهينت كرامتي واهتزت رجولتي وسرقت الطفولة من أبني الصغير ..وكيف أصبحنا بعد ذلك اليوم أشباحا تتحرك بلا عقل أو قلب ..تتحاشى أعيننا أن تلتقي حتى لا نرى نظرة الانكسار ووصمه العار التي تملئ نفوسنا وتجعل ظلمات الحزن تعشش في قلوبنا .

بُح صوتي واختنقت الكلمات وتحشرجت في حنجرتي واغرورقت عيناي بدموع متحجرة أبت السقوط محافظة على ما تبقى لي من إحساس بالرجولة كنت قد فقدته منذ ذلك الحادث الشنيع .
طأطأت رأسي قليلا حتى ألتقط أنفاسي وأحاول استعادة تماسكي ..وشعرت بيدها تربت على كتفي برفق.. فنظرت إلى وجهها وهالني دموعها التي تنساب بغزارة وكأنها تُبكيني وتبكيها فمصابنا واحد وآلامنا مشتركة .

حاولت عبير مواساتي ببعض الكلمات غير أنى أدركت في عينيها إحساسها بالفجيعة التي ألمت بنا ..وانطلقت فجأة وهى تنظر إلى الفراغ في توجيه أسئلة حائرة مباغتة وكأنها تنطق بلسان حالي ..ماذا أفاد معك العلاج؟ وهل تمكن طبيبك من مداواة

جرحك وإيقاف نزفك ؟ هل عالج دواءه داءك وعلتك ؟ ..هل استطاعت كلماته أن تزيل عنك شعورا بالخزي والعار ؟..هل أعادت جلساته ثقتك في نفسك ورجولتك ؟..هل أعاد إليك زوجتك وإحساسها بكرامتها وإنسانيتها وعالج الشرخ الذي أصابها وكسر قلبها وقتل أحلامها ؟ ..هل داوت جلساته ثقة ولدك التي فقدها في مثله الأعلى وقدوته؟ ..هل أزالت خوفه وأعادت براءته المذبوحة ؟ ..هل أعاد لي الطبيب زوجي وابنتي وحياتي التي فقدتها ؟

يا صديقي ما حاجتنا لطبيب ..وداءنا ليس بحاجة لدواء .. ؟..النفوس إذا ماتت فلن تحيى ثانية ..والأطباء لا يحيون الأموات ..كلانا قد مات ودفنت مشاعرنا وأحاسيسنا وآمالنا ..ولم يتبقى لنا سوى صرخة في وجه مجتمع فاسد احتضن البلطجة والعنف والرذيلة ..تحول البشر فيه إلى وحوش مفترسة أبت على نفسها ترك ضحاياها ..وبات الشرفاء والضعفاء فرائس مستباحة ..وسادت الرذيلة ..وضاعت الفضيلة تحت إقدام هؤلاء المجرمين اللذين عسوا في الأرض فساد ..وأصبحت حياتنا وأولادنا وبيوتنا مهددة بهم وبأمثالهم ممن باعوا ضمائرهم ..ونزعوا الإنسانية والرحمة من قلوبهم ..وأصبحت لهم اليد الطولي على رقاب البلاد والعباد .

يا صديقي اجتيح الإنسان واجتيحت الأوطان وبتنا في العراء ..عراة الأجساد والأفكار ..تنهش لحومنا ذئاب جائعة ..تفترس ضحاياها بقلوب ميتة ..وعيون باردة ..وسلاح غادر ..يا صديقي ليس لنا من شيء .. سوى أن نصرخ ..نصرخ في وجه مجتمع تعرى فيه الجميع ..فجميعنا قد اغتُصبنا وهُتكت أعراضنا ..ودُنست أرواحنا ونفوسنا ..وذهب أمننا وأماننا ..فلنصرخ ونصرخ حتى يتردد صدى صراخنا علنا نفيق و يصحو مجتمعنا ..وفجأة تلعثمت كلماتها وتحولت لصرخات مدوية أثارت داخلي رغبة مكبوتة فشاركتها صراخها ...وتعالت صرخاتنا سويا وتردد صداها ..والجميع حولنا ينظر بدهشة وريبة .

***

"تمت "

عفريت المقابر

فتحت عيني وكأني لم أحرك جفن ..فلا شيء أراه أمامي ..ولا بصيص ضوء ينير حلكة الظلام من حولي ..يبدو أنهم أغلقوا جميع الأنوار حتى لا يوقظني ضوءها ..ولكن هذا الظلام كثيف و يطبق على صدري ولا أكاد التقط أنفاسي ..أي ظلام هذا الذي يجعل الليل ظلمات ويذهب بشعاع الشمس وضوء القمر؟ .

يبدو أنى استغرقت في نوما عميق وتجاوزت من الوقت الكثير ..فجسدي ثقيل ولا أكاد أحركه ..وجميع أجزاءه قد تيبست وفقدت ليونة الحركة والنشاط .

ولكن أين جلبة من في البيت ..فلا أكاد اسمع لهم صوت ..أين ذهب أولادي وأمهم ..فليس بعادتهم أن يتركوني أغط في نومي كل هذا الوقت ..ولم أعتاد منهم هذا الصمت الرهيب الذي لم أألفه سابقا ..فربما خرجوا لزيارة خارج البيت .. أو خلدوا هم أيضا في سبات عميق ولم يستيقظوا بعد .

كم كنت أتوق أن أخلد إلي فترة راحة أخلع على أعتابها تعب وأرق يتملكني ويحرمني متعة الاستغراق في نوما هادئ ..ويبدو أني قد حصلت على بغيتي ..ونلت قسطا من النوم يريح أعصابي المنهكة ويمنحني قدرا من النشاط لأيام قادمة .

فركت عيني أكثر من مرة ..وحدقت.. علني أتبين شيء مما حولي ..وأطرقت بأذني علني أسمع دبيب حياة ..غير أني لم أجد إجابة ..فلم تبصر عيني ولم تسمع أذني ..وضاق صدري برائحة لم أستطيع أن أتبينها ..لكن مع مرور الوقت أدركت أنها رائحة عفنة تزكم الأنوف وتثقل النفس.

انتابني بعض القلق والريبة ..وأخذني فضولي أن أحاول أن أتبين مرقدي ..فعمدت أن اعتدل من نومي وأجلس علني أتبين بصيص ضوء أسير على هداه .. وكررت المحاولة أكثر من مرة لتحريك جسدي والانتصاب واقفا أو الاعتدال جالسا ..ولكن دون جدوى ..فقد تخشب جسدي بأكمله.. ورفعت أجزاءه راية العصيان في تحدي واضح وصريح لرجل اعتادت منه الأمر والنهي ..وسخرت لطاعته العمياء والاستجابة لمطالبه سنين طوال ..ويبدو أن الفرصة قد واتتها للاستقلال التام ..ومخالفة إرادتي .. فاستكانت بجانبي لا تنبش بنبت حركة وكأنها تخلد إلى الراحة التي حرمت منها أربعين عاما هي سنين عمري الذي عشته وأبحرت في أيامه ولياليه غارقا في أحداثها ..سائحا في معالمها .

حاولت أن أتبين موقفي وحقيقة أمري ..فربما مازلت نائما ..وكابوسا شديد الوطأة قد تمكن مني وخدر جسدي وتركني بلا حراك ولا أستطيع أن أفيق منه .. فالكوابيس قد تكبل الإنسان ولا يستطيع أن يحرر نفسه من قبضتها ..ويظل يعاني من سكراتها وأهوالها وكأنها غريمه يحاول أخذ ثأره والنيل منه بكافة طرق الإرهاب التي تجعله فريسة سهلة المنال ..ولا تمكنه الدفاع عن نفسه أو صد هذا الهجوم المباغت الذي يحاصره من جميع الاتجاهات ..ولا يجد أمامه سوى محاولة الاستنجاد و الصراخ أن أستطاع أن يقتنص فرصة انفلات لسانه من قبضة هذا الكابوس المخيف ..فربما

أستطاع أحد بجواره سماع صوته واستغاثته ..فيسرع بإيقاظه من نومه ويخلصه من براثنه.

ربما أكون بحق واقعا تحت وطأة كابوس يقبع علي صدري ويعشش في قلبي ..فلما لا أحاول الخلاص منه لعل أحد ينقذني ويزيح عني هذا الوهم الكبير .

حاولت الصراخ ..غيران صوتي لم يطاوعني .. وتنامي إلى سمعي حشرجة لم أستطع أن أتبينها .. أهذه صرخات مكتومة أم أنها من تبعات هذا الكابوس القاتل؟ ..حاولت الاستنجاد بزوجتي أمل وابنتي ياسمين وأحمد أبني ..وأعدت الكرة مرة ومرات ..فلم أتبين سوى حشرجة حنجرتي لا تفسر قول ولا تترجم إحساس ..وشعرت بلساني يتلعثم داخل حلقي ولا يكاد يستقيم ليُفصل الكلمات ويوضح النداء .
أدركت أن الأمر جد خطير فأنا واقع في منطقة بينية لا أتبين معها هل مازلت نائما أم أنني في حالة يقظة ..وفي كلتا الحالتين فأنا لأستطيع أن أتخذ قراري ..وغير قادر علي إدراك واقعي ..أين زوجتي أمل التي كانت في حركة مستمرة ودائما ما تؤرق نومي ..دون مراعاة حاجتي للراحة أو استغراقي في النوم ..أين جلبة ياسمين ابنتي مع أحمد وهم في شجار دائم علي أتفه الأمور ..وصراخهم المستمر الذي يخترق الأبواب والجدران ويستقر في طبلة أذني يقرعها ويطرقها لأستيقظ على فزعا أكيل لهم السباب والعتاب ..وبقدر تذمري الدائم من ضجيجهم وعبثهم ومحاولاتي المستميتة وأد هذه الجلبة ومحاربتها والعمل علي نشر السكون وإعلاء حالة الصمت في البيت ..إلا أن محاولاتي باءت جميعها بالفشل واستمر الضجيج والإزعاج حتى تعودته وصار جزءا من حياتي...غير انه كان يحدوني دائما الأمل أن يأتي اليوم الذي أخلد فيه إلي نوما بلا ضجيج .

ربما استجابوا أخيرا لتوسلاتي وطلباتي المتكررة لهم بالهدوء والتزام السكينة ..ولكن لماذا الآن فأنا في أشد الحاجة لصراخهم وثورتهم وغضبهم ..أريد ملاح أو مجداف يأخذ بيدي ويخرجني من هذه المياه الراكدة التي تجعل السكون من حولي وحشا قاتلا ينشب مخالبه في أعماقي فيسلبني روحي ويشل أعضائي .

اشعر ببرودة شديدة تجتاح جسدي ورعشة تضرب مفاصلي ..وحطام يصيب عظامي ..وتضاريس أرض متعرجة تخترق ظهري .

ليته كان كابوسا ..فقد بدأت أوقن أنني أعيش واقعا ..وأن مصيبة قد ألمت بي ..فربما أصبت بحالة عمى لأستطيع معها الرؤيا ..غير أني أدركت أن لساني أيضا قد أصابه العطب ....وجسدي أصبح ممدا لا يطاوعني على الحركة .. رباه ..ماذا أصابني ..فلأحاول النهوض مرة أخري .. ومرة.. ومرات .. تبدو محاولاتي جميعها بلا فائدة ..ولكن مهلا ..يبدو أن ذراعي الأيمن قد استجاب لمحاولاتي

وهاهو يتحرك بثقل شديد وأستطيع ثنيه ومده وتحريك أصابعه ..وكذلك قدمي اليمنى تحاكي ذراعي وتحاول أن تستجيب لأوامري ولا تخرج عن طوعي ..ولكن ما بال الجانب الأيسر من جسدي لا يحرك ساكنا ولا يستجيب لتوسلاتي وتفقد إرادتي كل سيطرة عليه .

يا للهول ..إن ما أعانيه ليس له سوى تفسير واحد وهو أني قد أصبت بشلل نصفي أتي علي جانبي الأيسر ..و أفقدني النطق ..وصرت عاجزا عن الحركة والكلام ..أي كارثة نالت مني .. وأي واقع أسود أعيشه ..وما الذي أوصلني إلي هذه الحالة ..يكاد أن يصيب عقلي الشتات من الأفكار السوداء التي تراودني ....وأشعر معها أني صرت لوح من الثلج يذوب رويدا رويدا حتى يتلاشى ولا يتبقي منه سوى بعض القطرات تبلل مكانه وتترك ذكري فناءه و سرعان ما يصيبها البخر .

بدت أفكاري ومشاعري وقد صهرتها حرارة الأسى والحزن وذابت قطراتها من هول الصدمة التي أصابتني.. وتدافع سيل الدماء يخالطها و يزاحمها في فراق هذا الجسد المسجى ..حتى تلاشى منى الإنسان وصرت هيكل يملأ فراغ دون روح تحييه .
حاولت أن أعصر ذاكرتي وأتذكر لحظاتي الأخيرة التي أعيها وأوردتني هذه الحالة ..وبصعوبة بالغة استرجعت شريط قصير تذكرت فيه مكالمة تلقيتها من سمسار شركة تداول الأسهم يخبرني فيها أني فقدت معظم أموالي في خسارة مفاجئة للأسهم التي كنت قد اشتريتها وأضارب بها في بورصة الأوراق المالية منذ وقت طويل .
نعم ..نعم ..هذه حقيقة تذكرتها .. ولكن مهلا ....خسرت أموالي في البورصة ..يا للكارثة ..تعددت مصائبي وزادت خطوبي ..ثروتي التي قضيت عمري ألهث في جمعها وأعمل علي مضاعفتها وزيادتها ..وكم من مرات حرمت نفسي وأولادي من حياة الرفاهية التي كنت أستطيع توفيرها ..فقد كنت أمتلك الملايين غير أن الطمع قد تملكني وعمدت على المضاربة بكل أموالي عساي أحقق أكبر ربح في أقل وقت ممكن..وكلما ربحت بعض المال ضاربت به على نفس الأسهم رغم نصح الناصحين بعدم وضع البيض كله في سلة واحدة .

فقد تعرضت سابقا لبعض الهزات الخفيفة وخسرت في بعض المضاربات ..غير أنها كانت خسائر طفيفة سرعان ما تعوض في مكاسب لاحقة ..وأستمر الحال على هذا المنوال أعواما طويلة حتى استطعت أن أجمع ثروة طائلة ضاربت بها كلها علي أسهم إحدى الشركات التي توسمت فيها خيرا ..ونصحني بعض الخبراء إنها ستكون الحصان الأسود للبورصة في الأيام القليلة القادمة ..وقد صدق حدسهم وربحت من وراءها الكثير مما زاد من جشعي للمال وجعلني أتشبث بأسهمها حتى جاء اليوم الذي تهاوت فيه هذه الأسهم وفقدت قيمتها وخسرت كل ثروتي ولم أعد أمتلك شيء ..يا حظي العسر وأيامي حالكة السواد ..كيف أعيش حياتي بعد فقد أموالي ..وكيف

استطيع تعويض ثروتي بعد ضياعها وعدم تملكي سوي بعض الأسهم التي لا قيمة لها ..رباه ..أكاد أصاب بالشلل من هول الصدمة .

تراكمت المصائب فوق رأسي ..و نسيت مصيبتي الكبرى ..فالشلل قد تمكن مني بالفعل وأرقدني طريح الفراش غير قادر أن أحرك ساكنا ..ويبدو أنه سرى في أوصالي عند سماعي خبر إفلاسي وخسارة أسهمي في البورصة .

ولكن مال عيني أيضا لا تبصر هل أصبت بحالة عمى وأصبحت ضرير لا أرى ..فالظلام يسود المكان .. والسواد يلفني من كل جانب ..و مع ذلك يتملكني شعور أن نظري سليم غير أن عيني تفتقد الضوء الكافي الذي يعينها علي الإبصار والتعرف علي الأشياء حولي .

يجتاحني شعور غريب أن هذه ليست فرشتي وهذا ليس منزلي ..ويؤكد صدق ظني عدم وجود زوجتي بجواري وغياب أبنائي عني وأنا في هذا الوضع الحرج ..ربما أكون في إحدى غرف مستشفي تم نقلي إليها عقب تدهور صحتي بعد سماع هذا الخبر الكارثي ..أو هى حجرة للعناية المركزة أتلقي بها علاجي ويعمل الأطباء على إفاقتي ومتابعة حالتي .. فزوجتي أمل ما كانت تتركني هكذا دون أن تذهب بي إلى أفضل المستشفيات وتبذل جهدها لمعالجتي واستكمال شفائي ..نعم ..نعم .. هذا أكيد فأنا في العناية المركزة ..وسرعان ما سيتم علاجي وأستعيد صحتي .

رباه ..ولكن مالي لا أري أطباء ولا هيئة تمريض ....ولا توجد محاليل ولا أجهزة طبية ..ولا خراطيم مزروعة في جسدي ..ولا رائحة أدوية وتعقيم .. لا يوجد شيء يوحي أني أتلقى علاجي في مستشفي ..ماذا عساي أكون ..وأين أنا؟ وما هذا المكان الموحش الذي أسكنه ؟.. يجب أن أعمل فكري وأحاول أن أتعرف علي هذا المكان الغريب الذي أقيم فيه ولا أجد من يسمع صوتي أو يؤنس وحدتي .

بصعوبة أتحسس المكان بجانبي ..يا للهول ..ماذا عساي أجد ..أنه جسدا طري ..يبدو أنه طفل صغير ..نعم نعم ..هو طفل صغير ها أنا أتلمس وجهه ..وقدميه ويديه ..بالتأكيد طفل صغير ..ولكن ماله صامت لا ينطق ..ولماذا جسده باردا برود الأموات هكذا.. لا يتحرك أو يصرخ مثل باقي الأطفال .

يا الله .. ماذا يكون علي الجانب الأخر ..يداي تلامس أشياء غريبة لا أستطيع استبيان ماذا تكون ..فلا أستطع إدراك هذا الكائن الراقد بجواري ..فلا شيء مميز أستطيع

أن أدرك معه هذا الشيء الغريب .. فقد غارت أصابعي في تجاويف كثيرة محاطة بشيء كمثري الشكل ..يبدو مثل الكره المنبعجة أو الباذنجانة الرومي ..غير أنها صلبة بعض الشيء .. فأصابعي تلامس تجويفين متجاورين ..وأسفلهما تجويف كبير يشبه !!....ما هذا ..يا ألهي.. التجويف بداخله تعاريج كثيرة حادة وكأنها أسنان أدمية .. يا للهول ماذا يعني هذا . . نعم نعم ..حقا ..إنها جمجمة ..جمجمة بشرية ..تملكني الرعب ..وأطلقت صرخة مدوية ..ابتلعتها في جوفي ..فالرهبة التي تجتاحني حالت دون تحريرها.. ولم يستطع لساني ترجمتها .. هى بالفعل جمجمة ..سريعا أخذت أتحسس هذا الشيء المرعب وأدركت تماما أن من يؤنس وحدتي ويتمدد بجانبي هيكل عظمي لإنسان مضي علي وفاته أكثر من عقد من الزمن .

رباه ..أيقنت الآن أني راقد في.. قبر ..نعم..نعم .. مدفون في مقبرة ..وتنطلق منها هذه الرائحة العفنة التي تجثم على صدري وتسكرني بلا مسكر.وتضيق أنفاسي فلا استطيع معها التقاط الهواء الذي يعينني على البقاء حيا .

وهذا الطفل الصغير الراقد بجانبي بلا حراك أو بكاء ما هو إلا جثة هامدة دفن معي ربما في نفس التوقيت وهو ما يجعله على هيئته لم يدركه التحلل بعد ..و الظلام الدامس الذي يطبق على المكان ويمنعني الرؤية راجع لإغلاق المقبرة بإحكام فلا يزورها بصيص ضوء ولا تلاطفها نسمة هواء .

أدركت الآن حجم الكارثة ..فقد دفنت حيا ..وأغلقت المقبرة أبوابها .. وها أنا أواجه مصيري بمفردي وقد خارت قواي بعد أن أصابني شلل لأستطيع معه دفع البلاء عن نفسي أو محاولة الخروج من هذا القبر المحكم الإغلاق ....وضاعت كلماتي بعد أن لُجم لساني وتكور داخل حلقي ليغلقه ويصادر صرخات الاستغاثة ..أي مصيبة تلك التي أصابتني ؟..وكيف لي الخروج من هذا القبر المخيف .

حاولت بعد برهة من الزمن أن أستعيد توازني و أتمالك أعصابي و أجد وسيلة تعينني على تجاوز هذه المحنة ..فزحفت بجسدي الممدد يجر نصفه الحي بعضه الميت ..غير أن المقبرة ضيقة بحيث لم تسمح لي بحركة كاملة ..وكلما تحركت للجانب الأيمن ترتعد أوصالي من وجود الهيكل العظمي الذي يرقد بجانبي وكأنه يتوق لهذه اللحظة ليأخذني في حضنه ويطبق على جسدي بذراعيه ليتذكر معي أهله وأحباءه .. وعائلة تركها منذ زمن بعيد ..ربما سقط من ذاكرتهم وحجبت الأيام ذكراه و ذكرياته .

وعلى الجانب الأخر جثمان الطفل الصغير وقد هدأت روحه بعدما كان شعلة نشاط.. وسكن جسده وهجر طفولته ليتحول إلى جثة هامدة لا حياة فيها .. رباه ..أكاد أشعر بسخونة دمعة تفر من عيني علي هذا الملاك الصغير الذي ترك حضن أمه لتحتضنه وحشة القبر ..يفتقد دفء صدرها بعد أن تلقفته برودة الأحراش والأرض ..إحساسا يقتلني ويجذبني نحوه كي أحتضنه وأضمه إلى صدري .. أمسح على رأسه وأزيح عنه هموش القبر وديدان الأرض .

سرعان ما أفيق على واقعي ..وأدرك أني لاحق بجيراني قريبا..ميت الأمس البعيد .. وجثمان الطفل الوليد ...فأنا سائر على دربهم وهذا مصيري المحتوم أن لم أجد وسيلة أستطيع بها الخروج من هذا القبر الذي تتساوى فيه الأضداد ..وها أنا أدرك الآن معنى قول الشاعر "فقد تساوى في الثري راحل غدا وماض من ألوف السنين "

أدركني التعب والإرهاق الشديد من حركتي البطيئة داخل قبري الصغير ..وأخذ مني الفكر ما أخذ ولم أعد قادر علي بذل مزيد من الجهد أو إيجاد المزيد من الحيل ..فركنت بظهري علي حائط القبر وقد أدركت أني هالك لا محالة ..وأن المسألة معي مسألة وقت ..ولن يطول ..فاستسلمت للأمر الواقع وقد غلبني اليأس ..وانتظرت قدري المحتوم ..وقد غلبني الفكر وأخذني إلى حياتي الماضية محاولا إدراك ما حدث.. وسؤال يشغل فكري ويجعلني في حيرة من أمري ..كيف وصلت إلى هنا..وكيف تلقي بي عائلتي للتهلكة وأنا لازلت حيا ؟

كم تتضاءل قيمة الحياة أمام عظمة الموت ..وكم يتلاشى الإنسان وهو بين مخالبه .. يحاول أن يخلص بنفسه ويهرب بعيدا عن أنيابه ..غير أنه لا يجد فرصة الانفلات من فاهه الكبير الذي يلتهمه ويبعثر حواشيه ..وتتناثر المشاعر والكلمات والأفكار فلا يبقي منها شيء ..ويتلاشى الإنسان .

كم كانت حياتي تافهة وأنا أجاهد ليل نهار لجمع أكبر قدر من المال ..وكم سهرت ليال طوال أعد العدة وأحسب الأرقام لزيادة رصيدي في البنوك ورفع قيمة أسهمي في البورصة .

ورغم حياة الرفاهية التي أعيشها .. والسيارة الفارهة التي أقتنيها ..وبيتي الفخم الذي أسكنه ..إلا أني كنت أبخل كثيرا على نفسي وأولادي واشتد في محاسبتهم عند أول بادرة استشعرها في زيادة مصروفهم أو طلبهم أشياء لا تجدي نفعا ..أو لا تضيف جديدا لحياتهم .

لم أكن بخيل بالمعني المتعارف عليه ولكني كنت حريص علي أن لا تصرف الأموال إلا في موضعها ..وكنت أواجه بمعارضة وعتاب من زوجتي وأبنائي ..فهم

ينظرون إلى ثرائي ويطالبون أن تكون معيشتنا بقدر هذا الثراء ..وأن نستمتع بهذه الأموال التي نكنزها ..غير أني لم أكن ألقي بال لأرائهم ..وأنصرف لمتعتي وسعادتي في زيادة رصيدي في البنوك ..حتى تضخمت ثروتي ..وتعددت البنوك التي تحويها .

وهاهي الأيام تدور وأفقد أموالى في صفقة خاسرة في أسهم البورصة أعادتني إلى نقطة البداية ..إنسان بائس فقير ..وزاد الطين بلة حالة الشلل التي أصابتني وأفقدتني الحركة وأخذت قوتي وصحتي .. وأخر المطاف دفنت في قبر محكم الإغلاق ولا استطيع الفكاك منه ..ولا أجد للخروج منه وسيلة .

عاد السؤال يراودني و يلح علي كثيرا ويؤرق مضجعي .. كيف دفنت في هذا القبر وأنا علي قيد الحياة ؟

حاولت أن أجد إجابة تريحني وتهدئ من روعي بعض الشيء ...وقد أعيتني الحيل في محاولاتي إيجاد تفسير لهذا اللغز الذي أعاني تبعاته .. ووصلت أخيرا إلي تفسير وجدت فيه بعض المنطق وشعرت معه بهدوء النفس بعدما أزاح عن فكري هواجس كانت قد بدت تراودني .

فمازالت ذاكرتي تعي صرختي المدوية عند معرفتي بخسارة أسهمي في البورصة ..وبعدها دارت الدنيا برأسي.. ولم أعي ما حولي ..وكان هذا أخر عهدي بالحياة خارج هذا القبر ..و فيما يبدو أني لم أتحمل وقع الخسارة الكبيرة وكانت الصدمة التي أوقعتني في حالة الشلل الذي أصاب أطرافي ..ويبدو أني فقدت على إثرها الوعي وانعدمت مظاهر الحياة في جسدي مما أعطى لأسرتي إيحاء بوفاتي ..وربما أخطأ الطبيب التشخيص ووافقهم الرأي ..وتم إثبات الوفاة ودفني وأنا مازلت حيا .

رضيت بهذا التفسير وحاولت أن أجعله يقين في نفسي حتى أتجاوز هذه النقطة إلى محاولة التفكير فيما حولي وساعاتي القليلة القادمة .

رباه ..إذا صدق حدسي هذا فأكون قد دفنت في مقابر العائلة ..وهذا القبر الذي أسكنه هو الذي اشتراه والدي منذ أكثر من عشر سنوات ..و دفن فيه بعدها ببرهة قصيرة ..بعدما وافته المنية فجأة بلا مقدمات .

يا إلهي.. إن الهيكل العظمي الراقد بجواري هو بقايا جثمان أبي !! ..كيف.. وكل هذا الرعب يجتاحني لمجرد وجوده بجانبي ..ومحاولاتي المستميتة الفرار والبعد عن ملامسة عظامه النخرة . .أيعقل أن تكون تلك هى النهاية .

أبى نبع الحنان والمحبة ..مثلي الأعلى وقدوتي ..رمز الحماية والأمان .. كم أتذكره وهو يحملني فوق كتفيه وأنا طفل صغير لأشاهد عرضا لعربات الزهور في أعياد الربيع ..وكم كنت أنتظره مع إخوتي وهو قادم من عمله بعد ساعات الظهيرة ..نترقب وصوله من خلف قضبان الشرفة ..وما أن نلمحه حتى نتسابق ونقفز سلالم المنزل قفزا حتى نلاقيه أمام البيت نتخطف "أكياس "الفاكهة التي يحملها ونسارع بها إلي شقتنا يملؤنا الفرح وتغمرنا السعادة .

أتذكر خروجنا في معيته أيام العطلات وذهابنا للحديقة العامة في مدينتا الساحلية وقضاء يومنا في اللعب والمرح وهو بجانبنا يحنو علينا ويوجهنا ويتابع حركاتنا السريعة ونشاطنا الدءوب خوفا من حدوث مكروها لأي منا.. وتوجهنا معا لشاطئ البحر واللهو برماله والعوم في مياهه ..وهو معنا حارسا ومرشدا ومعلما .

كم من ليال سهرها معنا يراجع لنا دروسنا ويُبسط ما استعصى علينا فهمه ..وبقدر ما كنا نخشى ونخاف قسوته الظاهرة بقد رما كنا نحبه ونقدره .

أبي الذي فرح بزواجي وتجلت سعادته و رقص بين الحضور وهو الرجل الوقور.. وأخذ يتلقى التهاني ولا تكاد ضحكته أن تفارقه .

كم من مرات وضعت رأسي على صدره ألتمس منه القوة وأنا أواجه بعض المحن والصعاب التي تعتريني في معترك حياتي وعملي .

حصن أمان ألوذ به من مصائب الزمن ..واشعر بطفولتي بين يديه وفى حضوره رغم أني كنت قد تجاوزت الثلاثين من عمري .

ذكريات كثيرة جالت بخاطري وتداخلت بطريقة عشوائية من فرط ما داهمني الكثير منها ..وعادت بي لأيام وسنين طويلة مضت شهدت مراحل حياتي المختلفة ..تعددت أحداثها وذكرياتها .

هل يعقل أن تكون هذه التجاويف التي ابتلعت أصابعي هى سكن عينيه التي طالما رأيت فيها نظرات الرضا والسعادة ..وأدركتها في كثير من الأوقات وقد اعتراها حيرة وحزن ..وشاهدت دموعها تنهمر بغزارة يوم وفاة والدتي .. هكذا تحولت إلى تجاويف بلا إحساس أو مشاعر وفقدت كل معاني الحياة .

وهذه الأسنان المخيفة التي خلت من مظاهر الرحمة ..هى بقايا فمه الذي طالما استعذبت قبلاته في طفولتي الغضة ..وتلك الصورة التي مازلت أزين بها حجرتي وهو يطبع على وجنتي قبلة طويلة بعد حصولي على شهادتي الجامعية ..هكذا تحولت الحياة إلى عدم ..وأخلف الماضي بشاعة الحاضر .

لا يكاد عقلي أن يستوعب هذه المفارقات العجيبة ..وأن الهيكل العظمي الذي تملكني الرعب من وجوده بجواري وأعمل جاهدا للابتعاد عنه وتفادي ملامسته ..هو أبي بعد أن امتصت الأرض قوته وأذابت جسده ولم تبقي منه سوى بعض العظام البالية التي سرعان ما تتفتت جزيئاتها وتعجن مع طين الأرض ولا يبقي له من أثر سوي "رقيم " كتب باسمه خارج القبر يخلد ذكرى محاها الزمان .

كم أتوق لحضنك يا أبى لأجد بين ذراعيك الأمان الذي أفتقده وتزيح عن كاهلي هذه الأحزان التي تجتاحني .. ونتذكر سويا أياما وسنين طويلة قضيناها معا .. سعدت فيها وعشت أحلي أيام عمري ..كنت فيها ملاذي وأمني .

وبقدر حبي واشتياقي إليك ..أقدم لك أسفي فأنا أخشى الاقتراب من عظامك ..وأجاهد نفسي في البعد عن بقاياك ..ولا أكاد أطيق هذه الرائحة التي تجثم على صدري وتكاد أن توردني الهلاك .

ولكن ما بال هذا الطفل الصغير الذي يفطر قلبي حزنا ..وتجتاحني رغبة في ضمه إلى صدري ..أحوطه من قسوة الأرض وصقيعها ..وأبعث فيه بعض الدفء الذي حرم منه وبات يفتقده بعدما انتزعه الموت من حضن أمه وحنان عائلته.. وتنساب دموعي علي وفاته وهو الملاك الصغير الذي لم يقدر له أن يحيا حياته ويترعرع في دنياه .

إن لم تخونني الذاكرة فربما يكون هذا الطفل هيثم أبن جيراننا ..فقد أصيب بوعكة صحية منذ أكثر من أسبوع واحتار به والده مع الأطباء .وكانت حالته تزداد سوءا يوما بعد يوم ..ولم يكتشف له داء أو يجدي معه دواء ..و تدهورت حالته في الأيام الأخيرة بصورة سريعة.. وتنامي إلى علمي انه وصل لحالة ميئوس من شفائها ..ويبدو أن المنية قد وافته وتزامنت مع دفني فوري التراب معي في هذا القبر ليكون لي ونيسا وشفيع .

يا لقسوة الحياة وأقدارها .ماذا عساي افعل الآن وأنا أرقد مشلول لا أقوى على الحركة ولا أجد لنفسي مخرج وتكاد الأرض أن تبتلعني ..ولو استمر بي الحال على هذا الوضع فأنا هالك لا محالة ..فهواء المقبرة لن يسعفني فترة طويلة ..وبقائي بلا طعام وشراب سوف يقضي علي وسوف ألاقي حتفي إن أجلا أو عاجلا .

فقد أصبحت حقا في عداد الأموات ..ويجب أن أتقبل قدري وأستسلم له ..فليس بيدي ولا باستطاعتي شيء أفعلة بعدما أعيتني الحيل سوى انتظار الموت واللحاق بأبي والطفل الملائكي هيثم .

نظرت لهما وهما في سكون أبدي لا يعتريهم حزن أو فرح ..ولا تنتابهم عاطفة أو إحساس ..يرقدون في سلام تام.. انه سكون الموت الذي يقضي على كل مظاهر الحياة ..ويترك صاحبه خرقة بالية يرتع في أحشائها دود الأرض وتغزوها جيوش الحشرات الهائمة .

ولكني مازلت على قيد الحياة ..و مشاعري جياشة وقلبي مازال ينبض ويحدوني الأمل ..أحب الحياة وأخشى الموت الذي يحوم حولي واسمع طنينه في أذني وهو يحلق فوق رأسي ..ينتظر لحظة الميعاد لينقض علي روح تنتظر الاحتضار ليفوز بها ويقتطفها ويتركني ألاقي مصيري مع من سبقوني .

اشعر بلسعة البرد ..و رعدة تسري في مفاصلي ..ورائحة القبر الثقيلة تجثم على صدري.. ..وعضة الجوع تعتصر أحشائي وتلوي جسدي ..و لا أجد ما يسد رمقي أو يروى ظمأى ... وبالكاد أحاول التمسك بالحياة ..فلدغات الحشرات تؤرق مضجعي وتقطع من لحمي وكأنها تنهش وليمة تخشى زوالها بعد اقتناصها ...فقد اعتادت اللحم الآدمي .. فليست كحشراتنا التي اعتدناها فوق الأرض وصارت ألفة بيننا نغالبها تارة وتغالبنا تارة أخرى ..إنها حشرات ظلام و لها الغلبة دائما.. فضحاياها مستسلمون ..تأكل وتنهش وتفعل ما بدا لها حتى تجهز على ما تبقي من لحومهم ثم تفتت عظامهم لينتهي مع أخر وجباتها كائن يسمى إنسان .

ماذا عساي افعل الآن ..تطاردني بعض الأفكار الشيطانية ..غير أنى أجاهد للهروب منها حتى لا أقع فريسة لها ..يلح علي هاجس الانتحار حتى أختصر المدة الباقية لي على ظهر الحياة وأنهي عذابي بيدي ..وهاجس أخر يطاردني ويفرض نفسه مع كل

عضة جوع تنهش أمعائي ..فربما أجد طريقة للنجاة إن استطعت المحافظة على حياتي لعدة ساعات أو أيام ..وليس أمامي فرصة لذلك سوى تناول حشرات القبر القاتلة ومحاولة سد رمقي ببعضها ..غير أني وجدت استحالة فعل ذلك .. فقد لامست إحداها فكدت أموت رعبا من ملمسها الشائك ولدغتها النافذة...وتراودني فكرة شيطانية بديلة ..ولكن لا لا ..لن استطيع ..هذا جنون ..أستمد حياتي بنهش جثمان هيثم ..هل هانت على نفسي إلى هذه الدرجة ..هيثم الذي أحببته وكان بمنزلة أبنى ..يأتي اليوم الذي تطاردني أفكاري بالتقوت بلحمه لأتمكن من مقاومة الموت والهروب منه والتشبث بأمل ضعيف في الحياة .

أخشى أن تنفرط مني أدميتي أمام اجتياح غريزة الجوع الحيوانية ..وتقطر منها المشاعر والقيم الإنسانية.. ومع ذوبانها يتلاشى مني الإنسان .

ما أهون هذه الحياة التي تساوي بين البشر ووحوش البرية وتنزع منهم الرحمة والإنسانية .

رباه ..ما هذه الأفكار السوداء ..وبشاعة تلك الحياة البغيضة التي تجعل من الموت راحة وملاذا من قسوتها وعذابها ..أجهدني الفكر ..وضقت بنفسي وحالي وتمنيت أن يسرع الموت فأنا أموت كل لحظة ألف موتة ..واطلب الموت الحقيقي فلا أجده .

استغرقني الفكر واستسلامي للواقع وانتظرت قدري المحتوم وما يمكن أن تسفر عنه الساعات القليلة القادمة ..وبينما هذا حالي ترامى إلى سمعي صوت جلبة بالخارج ..وطرقات مطرقة تدق باب المقبرة ..و شعاع نور ينساب على استحياء..وسرعان ما أضيئت جوانب المقبرة بعدما فتح بابها على مصراعيه ..وفهمت من همهمة من بالخارج أنهم لصوص مقابر تحينوا الفرصة لسرقة جثة أو بعض متعلقاتها ..ثم يلوذوا بالفرار بغنيمة فقدت شرعية الدفاع عن نفسها ..وبدا لي أن التوقيت مازال قبل الغروب بقليل ..والشمس تلملم بقاياها لتتوارى خلف ستار الليل لينشر الظلام أجنحته ويخيم على المكان .

حاولت الاستغاثة فلم يطاوعني لساني ..زحفت من مكاني حتى يدرك اللصوص أني مازلت حي ويحاولوا إنقاذي ..شاهدت احدهم يقترب و يعبث بجثمان هيثم ..وكان في هذه اللحظة واقعا تحت طائلة يدي ..فأمسكت برقبته بقوة الهارب من الموت

ليتشبث بالحياة ..التفت فجأة وقد تملكه الرعب لتتلاقي أعيننا وأنا أبحلق في وجهه بعين اتسعت حدقتها بفعل الخوف الذي يعتريني ..وينطلق لساني بصرخات خرساء ليست ذات معنى ..فيحاول اللص الهروب سريعا وهو في حالة يرثي لها ولا يكاد يدرك شيء بعدما تملكه رعب قاتل ..وأخذ في هروبه يقف ثم يقع ..ويتخبط في جدران القبر الضيقة ..وكلما حاول النهوض سقط مرة أخرى ..و كان يصيح بأعلى صوته "عفريت".."عفريت المقابر " .. بينما أتشبث برقبته بكل قوتي فهو ملاذي الوحيد ولن اتركه يفلت من يدي .

استطاع أخيرا وبعد جهدا جهيد وبمساعدة زميله بالخارج أن يخرج من القبر وهو بحال غير الحال الذي دخل به .. تاركا وراءه عدته وعتاده ..وقد علمت فيما بعد أنه سقط مغشيا عليه على حافة القبر ..ولا أدري ماذا ألم به بعد ذلك .

تجمع عمال المقابر على صراخ اللص وصاحبه وقاموا بإخراجي بعد إدراكهم أني لست عفريت وأنني المتوفى الذي واروه التراب وهو مازال على قيد الحياة .

ارتفع التكبير وتصاعدت كلمات التعجب من المحيطين بالقبر.. ..وأخرجوني من القبر محمولا على الأكتاف وقد علت البسمة والفرحة وجوه من حولي ..وعلى مقربة مني سمعت عويل وصراخ ..وميت محمول علي الأعناق ..يودع الدنيا استعدادا لنزوله إلى مثواه الأخير ..ولمحت بطرف عيني طابور المقابر وقد تراصت في صفوف طويلة وكأنها عربات قطار أنفاق تبتلع راكبيها وتغوص بهم في باطن الأرض ..تعتصر أجسادهم ..وتحرر أرواحهم استعدادا لرحلة الخلود الأبدية ....وما أدري إلا و مشاعري قد تبلدت وتساوى عندي العويل والبكاء ..والضحكات والهناء ..وصرت لا أخشى الموت بعدما أدركت بشاعة الحياة .

***

"تمت "

ميراث الموت

طالما وقفت أرقب حركة الوحوش الدءوبة ذهابا وإيابا وهى حبيسة أقفاصها في مساحة لا تتعدى أمتارا قليلة ..وعلى خلاف الزائرين اللذين يحاولون التمتع برؤيتها والاندهاش لحركاتها ..كنت أقف منها موقف المتأمل والمتألم لحالها ..فكثيرا ما أطلت

النظر في عينيها محاولاً قراءة أفكارها والوقوف على معاناتها ..وأحاول إيجاد معنى لحركاتها السريعة التي تجوب بها مساحة القفص يمينا ويسارا ..وما أن تصل لركنه حتى تستدير لتخطو سريعا لركنه الأخر .

وجال بخاطري ربما تلك الحركة الفطرية التي تتشابه فيها جميع الوحوش من الأسود إلى النمور إلى الضباع .. طاقة كامنة تعمل على تصريفها بهذه الحركة البندولية السريعة يمينا ويسارا.

فقد استهوتني تلك المراقبة ..و حاولت مرارا أن أغوص في أعماق هذه الوحوش لأدراك تأثير هذا الأقفاص المغلقة عليهم ..بعد أن قيدت حريتهم ..وحددت إقامتهم ..وبدلت حياتهم ..وابتعادهم عن البرية ..وسعة الغابات ..وحياة القنص والصيد.

قدر لي متابعة بعض هذه الوحوش على فترات زمنية متباعدة ..وحاولت أن استبين هل غير الزمان شيء من سلوكها ..وهل اعتادت أقفاصها ومحبسها وتناست حريتها و حياتها الأولى ؟..هل نُزعت منها نزعة الافتراس وتحولت من وحوش ضارية إلى حيوانات مستأنسة تهز ذيلها لحارسها كلما قرصها الجوع ؟ .. وتنفر من رائحة الدماء الطازجة ..وتعاف سخونة اللحوم التي تنبض بالحياة ..بعد أن اعتادت اللحوم المثلجة وبقايا الحيوانات .

على مر السنين والأيام وجدت هذه الحيوانات وقد تبدل حالها وتغير طورها ..فقد هدأت خطواتها ..وارتخت ذيولها ..وتكاثرت في حياة الأسر وتناسلت ..وأصبح لها عائلات وأشبال صغار تلاعبهم وتلهو معهم .. واعتادت الزائرين ..بل وأصبحت تأنس بوجودهم ..فهى تنظر إليهم وترقبهم وتتابعهم ..كما يرقبوها ويتابعوها ..فلا تكاد تدرك من منهم يتابع الأخر ويدهش لمسلكه ..فقد استطاعت الأيام أن تمحو الفاصل بين الحيوان المقيد والإنسان الطليق .

غير أن هناك شيء لفت نظري ورأيت أثره يزداد على مر الأيام ..وهو تلك النظرة الكسيرة في عين تلك الوحوش ..فهذه ليست نظرة أسد الغابة الذي يهتز له العرين ..وتوقع الرعب في قلوب فرائسه .

فتلك النظرة الكسيرة هى أهم ما يميز الوحوش في محبسها ..ويتساوى فيها الجميع ..فلا تجد حيوان في قيده إلا وانكسار عينه واضح جلي يميزه الصغير والكبير .

فقد تغلبت وتأقلمت هذه الوحوش على مر الأيام مع ظروفها ..ومارست حياة صناعية بعيدة عن الطبيعة التي خلقت لها ..واستطاعت أن تعيش ..غير أنها كُسرت وجدانيا ..وتبدلت نظرة القوة والشموخ والتنمر إلى نظرة ألم وخنوع وانكسار .

لم يدر في مخيلتي ..ولم يخطر لي يوما على بال أني سأرافق هذه الوحوش ..وأعاني معاناتها وأعيش حياتها ..وأترك حياة الحرية ..واستبدلها بهذا القفص الحديدي الذي لا يزيد اتساعه عن مترين .. بعد أن كانت تضيق بي الأرض على رحابتها ..وأدرك الآن معنى أن أعدو ذهابا وإيابا ..وأسرع الخطى تارة ..وأبطئها تارة أخرى ..يتملكني اللاوعي ..ويسيرني المجهول ..وجملة من المشاعر والأحاسيس تتقاذفني.. تسري سمومها في دمي ..و نصالها تقطع لحمي .

ها أنا أقضي فترة حبس على ذمة قضية قتل لم أتخيل يوما أن أكون طرفاً فيها ..أو حتى شاهداً عليها ..فقد عشت حياتي مسالما .. وحاولت قدر المستطاع الابتعاد عن أوكار الفساد ..وصحبة السوء ..واتخذت من الفضيلة صديق ورفيق ومن الرذيلة عدو أجافيه .

ونظرت دوما للسجون وأهلها وكأنها خارج نطاق الحياة ..وبعيدة بعد الكواكب عن أرضنا ..وأهلها بشر غيرنا ..وحياتهم تخالف حياتنا ..نفوسهم مظلمة ..وضمائرهم ميتة ..ومسلكهم وطريقهم لا يلتقي وطريقنا .

حتى جاء اليوم الذي وجدت نفسي سجين جريمة من أشد الجرائم وأقساها على النفس والقلب .. جريمة عقوبتها هى الأشد في الدنيا ..وفي الآخرة النار تنتظر صاحبها لتلقي به في الدرك الأسفل منها .

أعود بذاكرتي لأيام بعيدة ..وقت أن كنت مع إخوتي على أبواب مرحلة الصبا ..حيث لم يتجاوز عمري يومها الثامنة عشر ..وكنت أكبر إخوتي وهم خمسة من الأشقاء وبنتين ..وكان أصغرنا شقيقي صالح الذي لم يتجاوز الخامسة من عمره .

لا أنسي وقتها يوم أن توفى والدي ..وجاءنا الخبر من زملاءه بالعمل أنه قد أصيب بأزمة قلبية قضت على حياته في التو واللحظة ولم تمهلهم وقتا لإسعافه .. حيث فارق الحياة وهو في سيارة الإسعاف قبل أن تصل به إلى المستشفى لإنقاذ حياته .

ولا زلت أتذكر تأثر زملاءه في العمل بموته المفاجئ بعد أن كان شعلة في النشاط والحركة ..وهم يقصون لأقاربي كيف كان يضحك معهم ويتبادل الحديث وهو بكامل حيويته ولياقته ..وفجأة أختنق صوته واحمرت عيناه ووضع يده على صدره وأخذ يصرخ ويئن ..وفي لحظات قليلة سقط بينهم على الأرض ..وهم حوله يحاولون إسعافه وإنقاذه ..ولا يدركون أنها لحظاته الأخيرة .
كان وقع كلامهم وروايتهم شديد على والدتي وأعمامي اللذين حضروا لتوديع أخيهم وأخذ واجب العزاء ..ورأيت الدموع تنساب من أعينهم ..والبكاء المكتوم يملئ البيت من الأهل والأصدقاء .

ترك موت والدي أثرا عميقا وجرحا غائرا في قلب أمي لم تستطيع الأيام مداواته ..وقد هزني موت والدي وزلزل الأرض تحت أقدامي ....فقد تضاعف أثره من فقدان الأب .. الحماية ..والملاذ ..و بداية معرفتي بالموت وما يخلفه من كآبة وضياع .

أرادت والدتي أن تتخذ منى رجلاً للأسرة يكون لها سندا وعوضا عن فقدان رب البيت ..فعمدت على الانفراد بي وحاولت شرح الموقف وأبعاده بعد وفات والدي .. وكانت ذات علم وثقافة وقدرة على تسييس الأمور وإدارتها ..وأطلعتني على سر هام وائتمنتني عليه ..على أن لا أطلع عليه أحد وخاصة إخوتي .

علمت منها أن والدي كان مريض بالقلب ..وأن شقيقي الأصغر صالح ورث عنه المرض..وأن الأطباء لم يجدوا له علاج وأوصوا بعدم إجهاده والمحافظة على هدوء أعصابه..ومعاملته باللين والبعد به عن الانفعال وكل ما يثيره .

كانت مفاجأة صادمة ..فقد تخيلت شبح الموت يخيم على أسرتنا مرة أخرى ويختطف شقيقي الأصغر..ليضاعف عذابنا ويتركنا من بعده نندب حظنا ونجتر آلامنا .

حاولت أن أمتص الصدمة.. فيكفيني حزني على والدي الذي لم يندمل بعد ..واستطعت بمعاونة والدتي أن أسيطر على انفعالاتي..وأحسست منذ ذلك اليوم أن عشرة أعوام قد أضيفت لعمري .. ورويداً رويداً بدأت أشغل مكان والدي في البيت ..وأصبحت مسئولا عن إخوتي ..استمع إلى هذا ..وألبي طلب ذاك ..واسيس تلك ..وأطبطب على الأخرى ..حتى اعتدت هذا الدور ..واعتاده إخوتي ..وزادت بيننا مسافة الإخوة لتحل محلها علاقة أبوية معنوية يسودها الاحترام والتقدير .

استحوذ شقيقي صالح على كثير من اهتمامي خاصة بعد إدراكي علته ..وحاولت جاهدا تلبية طلباته ..والاستجابة لأوامره التي بدأت تتزايد وتخرج عن السياق الطبيعي .

تركنا والدي ميسورين الحال ..حيث ترك لنا أرث ورثه عن والده وهو عبارة عن عمارة تضم 20 شقة نقوم بتسكينها بالإيجار ..ونُحصل إيجارها كل أول شهر ..بالإضافة إلى قطعة من الأرض الزراعية في بلده ومسقط رأسه التي تركها منذ أمد طويل ..ويقوم أعمامي بزراعتها وإدارتها لنا ..وتسليم والدتي حصيلة ريعها .
لذا فقد عشنا حياة ميسورة ولم تعودنا الحياة لمد يد المساعدة لأحد ..وفي ذات الوقت لم تزخر حياتنا بمظاهر الترف ورغد العيش.
صارت بنا الحياة واستمرت سيرتها الطبيعية ..وحاولت أن أقوم بدوري تجاه إخوتي ..و أحافظ لهم على حياتهم التي اعتادوها في حياة والدي ولا أجعل غيابه عنهم يشعرهم بالنقص أو الحرمان.. وكانوا جميعا على قدر المسئولية ..فقد استجابوا لتوجيهاتي ..واستمعوا لنصائح والدتي حتى تخرجوا جميعا من كلياتهم وشغلوا

مراكز مرموقة في أماكن عملهم ..وتزوجت الشقيقتان من زملاء لهن وعاشوا حياتهن ..إحداهن تسكن بجوارنا ..يفصلها عن بيتنا شارعين ..والشقيقة الأخرى استقلت ببيت لها في مدينة مجاورة لمديننا مع زوجها وأولادها ..وكنا نراهم في زياراتهم لنا من وقت لأخر .

وبقي شقيقي الأصغر صالح الذي تعثر في دراسته ..وحصل على دبلوم فني بالكاد بعد أن تجاوز العشرين من عمره ..فيبدو أن خوفنا عليه ومحاولة استرضاؤه ..وتلبية طلباته المستمرة ..قد خلق منه شخصية إتكالية ..وأورثه بعض الصفات الإنحرافية ..التي عانينا جميعا منها على مدار مراحل حياته المختلفة .

فقد نشأ صالح والأنانية عنده طبع ..والطمع والتهور صفات ملازمة له ..وقد عانينا الأمرين في سبيل إعادته إلى طريق الرشد وغرس القيم والمبادئ في نفسه ..غير أن الانحراف أصبح متسيد على طباعه .. وضرب بنصائحنا عرض الحائط ..وعاش حياته عابثاً لاهياً..يملئ الشغب حياته ..عاص لأوامرنا ..غير مستجيب لنواهينا .

وصاحب الكثير من أصدقاء السوء اللذين زينوا له طريق الانحراف وقضوا على ما تبقى لنا من محاولات إصلاحه..وأصبح همه الشاغل الحصول على المال ..وصرف ما يحصل عليه ليعاود المطالبة بغيره ..حتى ضاقت به والدته ..وابتعد عنه أشقائه بعد أن أعيتهم الحيل لمحاولة إثناءه عن طريق الضياع الذي سلكه ..فقد ضرب عرض الحائط بمحاولات تقويمه ..وارتمى في أحضان صحبة السوء ..يستمع لهم ويعمل عملهم ..ويقضي ليله ساهرا يجوب معهم البارات وأماكن السهر واللهو ..حتى أذا أشرقت الشمس دلف إلى حجرته وتكور في سريره وخلد إلى نوم عميق حتى يجن الليل فينطلق إلى سهراته وشطحاته .

أدركنا جميعا بعد أن يأسنا من محاولات إصلاحه ..أنه قد جنح عن الطريق وهو في سبيله لمنحدر خطر سوف يأخذه ويأخذنا معه إلى المجهول .

كنت قد بلغت الخامسة والثلاثين من عمري ..حينما تزوجت من قريبة لنا أحببتها وأحبتني ووجدت فيها المواصفات التي ترشحها لان تكون شريكة لحياتي ..وقد سعدت برجاحة عقلها وسعة أفقها وإدراكها لظروف أسرتنا وإلمامها بأحوالنا..وتقديرها حجم المسئولية الملقاة على عاتقي ..وقد استعنت برأيها كثيرا في بعض المواقف التي تخص إخوتي .. وكانت سديدة الرأي.. وتعاملت معهم كأخت لهم ..فأحبتهم وأحبوها .

وقد من الله علينا بولدين جميلين ملئوا علينا البيت دفيء وحياة.. فعشنا أسرة متحابة مترابطة .

وحرصت أن أغرس في أولادي من القيم والمبادئ ما كان أبى وأمي يحرصان عليه في تربيتنا ..فقد نشأنا علي الإيمان والأخلاق الحسنة ..وهو ما حاولت نقله لهما بصورة تجاري عصرهما وترعي اختلاف الأزمنة .

استمرت حياتنا على هذا المنوال لا يعكر صفوها سوى معاناتنا مع شقيقي صالح ..الذي ازداد حاله سوء يوما بعد يوم ..وزاده وفاة والدتي جنوح وطيش وفتح طريق الانحراف أمامه يعدو فيه كيفما شاء .

وبرغم ما يكنه لي من احترام ومحاولاته الدائمة تحسين صورته أمامي .. ..إلا أنه في الفترة الأخيرة بدأت الحظ في تصرفاته وردوده بعض التبجح الغير مألوف ..وبدا في كثير من الأحيان غير عابئ بحديثي وتوجيهاتي ..وكنت قد اعتدت منه هذا السلوك منذ فترة غير أنه لم يكن يجاهر به ..وكان يحافظ على احترامي في مواجهته ..وقد بدا هذا السلوك يثير حافظتي عليه أحيانا ..وحينا أخر أكظم غيظي خوفا عليه .

وبرغم شطحاته الزائدة عن الحد ..وبعض تصرفاته التي تشذ عن المعتاد ..إلا أني لم أكن له يوما ضغينة أو كرها فهو أبن عاق أحبه وأكره أفعاله .

حاول جميع إخوته استرضاءه وتنفيذ أوامره ..والابتعاد عن أي مواجهة قد تطيح به وبحياته ..خاصة بعد أن أخبرتهم بحقيقة مرضه بعد وفاة والدتنا ..وبعدما ازداد لومهم ووصل درجة توجيه الاتهام أني تسببت بمشاركة والدتي في إفساده وجنوحه بتدليلنا له وتلبية جميع طلباته ..وأردت أن ارفع هذا الاتهام عن والدتنا خاصة بعد أن توفاها الله ..وحتى يشاركوني جميعا خوفي عليه ومحاولة تصويبه بكياسة وعقل والابتعاد عن كل ما يثير أعصابه حتى لا نفقده فجأة كما فقدنا والدنا في لحظة خاطفة .

تشاورنا جميعا وعلى مدار جلسات كثيرة جمعتنا عن أفضل الطرق التي ربما تصلح منه وتعيده إلى الصواب وتجعله إنسان قادر على الانخراط في المجتمع والحياة ..وحاولنا إيجاد طريقة عملية تصرفه عن طريق الانحراف وتبتعد به عن الانزلاق في هاوية الضياع ..و تحمست إحدى شقيقاتي لفكرة زواجه عساه ينصلح حاله ويشعر بالاستقرار ويقدر المسئولية بعد أن يجد نفسه مسئولاً عن زوجة وأولاد ..وانضمت لها شقيقتي الثانية مؤيدة فكرتها .. وعلى تريث وافق أشقائي على فكرة زواجه.
ووجدتني في النهاية أقر فكرتهم على مضض ..كَحل أخير لعل وعسي ..وربما كان في الزواج صلاحه ..وبداية فلاحه .
لم يأخذ الأمر منا الكثير ..فقد شمرت شقيقتاي عن ذراعهن وأخذنا في المفاضلة بين عده فتيات من معارفهن ..وفتيات أخريات من بنات العائلة .. واستقر رأيهن أخيرا على فتاة جميلة من بنات أحد أخوالي ..لها من راجحة العقل ..وحسن الصفات ما ميزها عن مثيلاتها ممن كن يقارن بينهن ..ووجدوا فيها خير معين لأخي صالح

وخير غطاء له ..فهى قريبة لنا ومن العائلة وسوف تحفظ سره و تعمل جاهدة على إصلاح حاله ومحاولة الخروج به من هذا المنزلق الذي يأخذه ويكاد يهوي به .

أوصيت شقيقتي الكبرى قبل الخطوبة أن تتحدث إلى ابنة خالي وتصارحها بحقيقة مرض صالح ..وتعدد لها بعض عيوبه مع قليل من تجميل الصورة حتى لا تبدو قاتمة بما يكفي رفضه ..خاصة وأن خالي وعائلته يعيشون في بلد بعيد عن بلدنا ..ولا يعلمون عنا سوى كل خير ..وتكاد سيرة صالح السيئة أن تتلاشى مع سمعة الأسرة الطيبة .

ويبدو أن شقيقتي قد نقلت الصورة بكثير من التجميل..فقد كللت أخيرا مهمتها بالنجاح واستطاعت أن تفوز بموافقة ابنة خالي بعد عدة لقاءات معها ..و تنفسنا جميعا الصعداء..مع دهشتنا التي لم نستطع إخفاءها ..فقد كاد اليأس يدب في نفوسنا خاصة بعد أن طالت فترة اتخاذ القرار..ولكن هانحن نصل في النهاية إلى النتيجة المرجوة .

استبشرنا خير بزواج صالح ..خاصة وقد طرأ عليه بعض التغيير وبات محاولا إصلاح ذاته والبعد عن أصدقاء السوء لمحاولة الخروج من النفق المظلم والنهوض من كبوته .

وعن طريق بعض معارفي استطعت أن أوفر له وظيفة لائقة تدر عليه دخلا جيدا يستطيع أن يحيا به حياة كريمة ..ومع ما يدره له الميراث من دخل شهري يمكنه العيش في بحبوحة .

بدا صالح لفترة من الزمن وقد اعتدل حاله واستقامت أموره ..وكان ذلك مدعاة لغبطتنا وسعادتنا وشعورنا بنجاح خطتنا وإنقاذ شقيقنا من طريق الضياع الذي كان يسلكه .

غير أن الطبع غلاب ..فقد أنقلب الحال.. و رويدا رويدا وعلى استحياء عاد صالح إلى حياته وعهده القديم ..فكان ينغمس فيها أياما ..ثم يفيق منها بعض الأيام ..ليعاود الكرة مرة أخرى ..وتنقل في عدة وظائف لم يستمر في أي منها فترة طويلة لعدم إثباته جدية وكفأه للقيام بأعبائها .

دارت عجلة الأيام والحال على ما هو عليه وأنجب صالح ثلاث بنات جميلات بلغت أكبرهن الثانية عشر هذا العام ..وقد عاهدت نفسي أن أكون في منزلة أبيهن ..خاصة وأن والدهن قد انخرط تماما في طريق الضياع بعد معاناة كبيرة عانتها زوجته..

ومحاولات مستميتة منها في إصلاح ما أفسده الزمن ..غير أنه قد اختار طريقه وضعف في مقاومته ولم يتمسك بحبال النجاة التي ألقيت إليه .

حاولنا جميعنا أن نتدارك الموقف ونحتضن زوجة أخي وبناته ونكون جميعا عونا لهن وعوضا عن والدهن .

انشغل كل منا في عمله وحياته..وحاولنا متابعة شقيقنا صالح ولملمة مصائبه التي بدت تبدو في الأفق ..وعمدنا قدر الإمكان أن نحوط مشاكله بحيث لا تتعداه إلى غيره وتسبب لنا ولأسرته مصاعب نحن في غنى عنها ..خاصة بعد أن جرفه طريق الإدمان وانغمس فيه..ورفض كل عروضنا ونصائحنا لمحاولة إنقاذه وإدخاله إحدى المصحات المتخصصة لعلاجه من هذا الوباء ..وفي نفس الوقت اتسعت شبكة أصدقاء السوء والمنتفعين من حوله .. مما ترك أثر سيء في تعامله مع زوجته وبناته وتصدعت علاقته بهن ..ولجأن إلى مشورتي كثيرا..وتدخلت أكثر من مرة لرأب الصدع ومساعدتهن في حل المشاكل المتعددة التي سببها لهن .

وعادة تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن ..فقد زادت حاجة صالح إلى المال ولم يعد ما يحصل علية كافي لسد احتياجاته من المخدرات والسهرات الماجنة ..وبدأ في مطالبتنا بمزيد من الأموال .

في البداية كنا نلبي له طلباته خشية أن تكون الجريمة هي وسيلته القادمة لسد حاجته من المال .. لذلك اتفقت مع إخوته أن نقتطع من نصيبنا في الميراث ونعطيه إياه حتى نسد حاجته ونغلق أمامه هذا الطريق الذي بتنا نخشاه ونعمل له ألف حساب .

ويبدو أنه فطن إلى ذلك فعمد إلى مطالبتنا بالمزيد ..وتبجح في طلبه ..وكأنه حق مكتسب لديه.. ويجب علينا الانصياع لرغباته وتنفيذ أوامره .

هجر صالح بيته وأسرته تماما ..وساح في الأرض مع أصدقاء السوء بعد أن استأجر شقة بعيدة عن الأعين وأعدها للقاءاته وسهراته وملذاته التي انغمس فيها تاركا عائلته وعالمه خلفه ..ولم يعد يربطنا به سوى إجابة طلباته المتكررة للمال ..وبعض المشاكل التي يخلفها وراءه ونحاول حلها.. والتي غالبا ما تنتهي ببذل المزيد من الأموال .

وأخيرا حدث ما كنا نخشاه ..وبدأ صالح في مطالبتنا بتقسيم الإرث الذي حاولنا أن نحتفظ به طيلة حياتنا أصول ثابتة تدر علينا أرباح ..فبعد أن أعيتنا طلباته المتكررة للمال وعدم استطاعتنا موافاته بما يكفيه ..فوجئنا به يطلب في تبجح نصيبه من الميراث كاملا وغير منقوص .

أسقط في يدنا ..فالميراث متكامل وغير محدد ..ومن الصعب إعطاءه نصيبه إلا ببيع العمارة والأرض الزراعية ..وهو ما لم يخطر ببالنا يوما من الأيام ..فقد اعتدنا على تقسيم عائد الميراث علينا جميعا وفقا للحكم الشرعي ..وهو يكفينا ويزيد ..ولم نفكر يوما في بيع هذا الإرث الذي يحمل معه ذكريات الطفولة ونجد في جنباته ريح والدي ووالدتي رحمهما الله .
غير أن إلحاح صالح في بيع الإرث وحصوله على نصيبه كاملا قد أربكني وجعلني أدعوا أشقائي لجلسة عائلية للتباحث في هذا الأمر الذي يخصنا جميعا و يدلوا كل منهم بدلوه في هذا الشأن .

عرضت الأمر عل أشقائي فأصابهم الوجوم ..وطلبوا مني الرأي والمشورة فأنا بمثابة والدهم و يثقون في رأيي ويقدرونه ..غير أني أجبتهم أن هذا الشأن لا يخصني وحدي وأنهم جميعا معنيين به ..وأنهم ليسوا أطفال فيمكنهم اتخاذ قرارهم وتحمل تبعاته .

أقترح احد أشقائي دعوة شقيقتاي وأزواجهن وعقد اجتماع عائلي يحضره صالح ونحاول أن نصل إلى حل يرضي جميع الأطراف ..فربما استطاع أحدنا شراء العمارة أو الأرض وتسديد حصة الورثة وإعطاء صالح حقه من الميراث ..ونتجنب بذلك البيع لأحد من الغرباء.. أو يتم شراء نصيب صالح وموافاته حقه ..وقد نتكاتف جميعا في شراء نصيبه ونحتفظ بملكية العمارة والأرض الزراعية للأسرة دون أن يدخلها غريب .

استحسنت الفكرة وحددنا يوما يجمعنا للقاء..وحضر صالح وجميع الأشقاء وأزواج شقيقتاي والأبناء جميعا ..وامتلاء البيت بأفراد الأسرة وعائلاتهم وشابه يوم عيد أو فرح..فقلما نجتمع جميعا ونتواجد سويا بهذا الكم .

بعد السلامات والتحيات واللقاءات الحارة التي جمعت البعض ممن باعدت المسافات بينهم وندرت لقاءاتهم ..تجمعنا لمناقشة قضية الميراث ..وبقدر روح الألفة والإخاء التي كانت تسود الجميع فقد بدا شذوذ صالح عن هذا الوئام ..وكان عدائيا في حديثه ..ورافضا لكل الحلول التي عرضناها وكان من شأنها المحافظة على كيان الميراث ووحدته ..وأصر بطريقة عجيبة على البيع حتى يحصل على نصيبه كاملا ..وظهرت نبرة التحدي جلية في صوته ..وكأنما وضع نصب عينيه تفرقة هذا الجمع وإثارة غضبهم وسخطهم ..وقد أصر على ذلك إصرارا .

احتدت المناقشة ..وتحولت الحميمة إلى الحمية ....وتعددت الآراء وارتفعت الأصوات ..وهدرت الحناجر .. واختلط الحابل بالنابل..وحاولت الإمساك بزمام الأمور قدر الإمكان باللطف تارة ..و الحزم تارة أخري ..غير أن المناقشة تطورت

سريعا و بدأت تخرج عن الطور المحمود ..وحدث نقاش صادم بين صالح وزوج إحدى شقيقاتي ..انفعل صالح على إثره وطلب في غلظة من زوج شقيقتي عدم التدخل فيما لا يعنيه ..وتدخلت شقيقتي مؤنبة صالح على قوله..ومؤيدة تدخل زوجها في النقاش والحوار ..فهو يمثلها ورأيه من رأيها ..وانفعل صالح على شقيقته ...وقام بسبها هى و زوجها ..وتكهرب الجو وبدأت الأمور تخرج عن السياق ..وفقدت السيطرة على مجريات الأمور .

أخذتني العزة أن يحدث ذلك في وجودي دون احترام أو تقدير ..واجتاحتني غضبة شديدة أخرجتني عن شعوري خاصة بعد تهور صالح وهجومه على زوج شقيقته للاشتباك معه والتعدي عليه ..فانتفضت سريعا ووقفت حائلاً بينهما ولكزت صالح بقبضة يدي في صدره لأثنيه عن تنفيذ اعتداءه .

في لحظة فارقة أفقت على صرخة صالح ..وترنحه ..وسقوطه على الأرض فاقدا النطق والحركة ..وينقلب الحال رأسا على عقب ..وتنطلق الصرخات في أروقة المنزل ..ويسرع أشقائي لمحاولة إنقاذه ..فيقوم أحدهم بتدليك صدره ..ويجرعه الأخر بعض رشفات من المياه ..وسرينة الإسعاف تدوي ..ويتجمع الجيران والسكان ..وتشق السيارة طريقها بصعوبة تحمل صالح لأقرب مستشفي .

أقف حائرا ..ترتعد أوصالي ..مغيب عن الواقع ..لا أكاد أدرك ما حدث ..ونظرات اللوم تحوطني من الجميع ..وفضول الجيران وأسئلتهم المتطفلة لا تجد لها مجيب .

و سيارة الشرطة تعوي..و يقتادني إليها أحد الضباط..وتنطلق بنا مسرعة ..وتتوجه كل سيارة إلى وجهتها يسبقها صراخ سرينتها يفرق الجموع المحتشدة ..ويخلفهما صراخ وعويل أفراد العائلة من النساء والبنات ..وتسود الحي حالة من الهرج والمرج ..ودهشة وتعجب .

تتلقفني الأيدي في قسم الشرطة بعد أن أصبحت في لحظة خاطفة أحد المجرمين المقبوض عليهم ..وينتظر جزأه العادل .

وسريعا تم كتابة محضر بالواقعة ..وأسئلة كثيرة ..وأجوبة بغير إدراك أو وعي.

قضيت في حجز القسم فترة لا أدري طالت أم قصرت ..فقد تملكتني حالة من اللاوعي والذهول الذي يشبه الموت ..وتم حجزي مع بعض أرباب السوابق اللذين لم أتبين وجوههم أو أسمع أصواتهم ..فقد كنت في عالم غير عالمهم ..ودنيا غير

دنياهم .فقد غُيبت خارج المكان والزمان إلى حيث يرقد أخي صالح ..و شغلت عن الجميع بمحاولة تلمس أخباره والاطمئنان علي صحته وحالته ..وظل سؤال يراودني هل تم إسعافه وإنقاذ حياته ؟..أم أنه "....." لا يكاد هاجس موته يطوف في مخيلتي حتى أتهاوى ويكاد قلبي أن يتوقف .

هل يموت صالح وأتحول إلى قاتل ..أقتل شقيقي بل أبني الذي ربيته ..وحنوت عليه طيلة حياته ..وتحملت الكثير من أجله ..وأحببته رغم سوء أعماله وانحرافه .

لم أكِن له يوما كرها أو حقد ..فهو كالابن الضال ..الذي أرهق والده..غير أن الأب لا لا يحمل شرا لإبنه ..قد يقسوا عليه ..ولكنها القسوة التي تحمل في باطنها كل معاني الرحمة ..فهي قسوة إصلاح لا قسوة هدم .

دعوت الله أن يلطف بنا ..ويخرجنا جميعا من هذه الهاوية التي إن اكتملت دائرتها فسوف تقضى علينا جميعا ولا تترك وراءها أخضر أو يابس .

ما أقسى أن تفقد حريتك ..وتتقاذفك الأيدي يمينا ويسارا ..ويتملك أمرك قساة القلوب غلاظ الوجوه ممن اعتادوا معاملة أشباه البشر وانعدمت قدرتهم على التمييز..فبات الجميع لديهم سواء ..وقست قلوبهم ..فلم تعد تلين إلا بأوامر تأتيهم من سلطة أعلى ..أو نفوذ يعلو قدرهم .

وهيهات أن تصبح جزء من عملهم .. يود كل منهم القيام به والتخلص من تبعاته .. ..فهم كالحانوتي الذي يُقلب الجثة ويشطح عقلة في سهرة ماجنة يقضيها في المساء ..فجميعهم يود الانتهاء من أمرك ..ليصل بك إلى المحاكمة ..لتبدأ دائرة أخري وحلقة أخرى من حلقات التحطيم المعنوي ..ونوعية أخرى من البشر لهم عليك حق تقرير المصير والحكم على حياتك وإطلاقك للحرية أو إيداعك زنزانة تحجبك عن نفسك وعن عالمك ..لتبدأ دورة أخري من دورات حياة العدم .

هالني أنى لم أجد أحد من عائلتي أو أسرتي يتبعني ويحاول طمأنتي على صالح ..ولكني عزيت ذلك إلى انشغالهم جميعا معه ..وتركيز جهدهم لمتابعته ومحاولة إنقاذه ..فمن المؤكد أنهم قدروا احتياجه إلى وجودهم بجانبه أكثر من حاجتي إليهم .

انهالت على رأسي آلاف من سهام الأفكار تصيبني في مقتل وتجعل صدري ضائقا حرجا..وتلهث أنفاسي بحرارة النيران التي تتأجج وتأكل بعضها بعضا وتصهر أحشائي ..وأحاول دفع فكرة موت صالح عن خاطري ..فجميع الاحتمالات مقدور عليها وأحاول استيعابها ..غير أن هذه الفكرة لا أجد معها سوى النهاية .

قضيت ليلة في حجز القسم انتظارا للعرض على النيابة صباح اليوم التالي ..ولا أدري كيف مرت هذه الليلة ..ولا أعرف لها ملامح..وكم تمنيت ملاقاة الموت عن ملاقاة ليلة كهذه .
لم أتذوق النوم ..أو تغلبني اليقظة ..فهى ليلة بمذاق مختلف ..وزمانها وساعاتها غير معتادة .

انتظرت بفارغ الصبر صباح اليوم التالي علـه يحمل معه بشرى سلامة صالح وتعافيه..وبدأ قسم الشرطة يعج بالحركة والنشاط ..وحاولت تَلمس الأخبار ولكن دون جدوى حتى كاد النهار أن ينتصف ..وفوجئت بمن يأتي وينتزعني بقوة إلى غرفة مجاورة ويخبرني بصوت أجش ووجه خلى من الإحساس وبلا مقدمات بوفاة صالح ..وأنني منذ هذه اللحظة أصبحت في نظر القانون قاتل ..وشقيقي صالح مقتول .

لم أدري إلا وأنا في المستشفي ..وحولي الأطباء وعدد من الممرضات يقمن بإسعافي ومحاولة إفاقتي من الإغماءة التي أصابتني عند سماع الخبر المشئوم ..فقد انتهيت إلى هاوية سحيقة غَيبت عقلي ووجداني وتركتني أجوف مفرغ الإحساس .

تمددت على سرير في غرفتي بالمستشفى ..وجُلت بنظري في أرجاءها بلا هدف أو وعي ..ولمحت الغمز واللمز من طاقم الممرضات والعمال اللذين يعكفون على متابعة حالتي .. وبطرف عيني رأيت أحد أفراد الأمن يقف خارج الحجرة شاهرا سلاحه .

تركت نفسي للمجهول بلا فكر أو وعي ..فما حدث يتجاوز تحملي وقدراتي ويتركني خرقة بالية ممددا فوق سرير لا حول لي ولا قوة .

تتقاذفني الأحداث سريعا ..وانتقل من المستشفي والأصفاد في يدي تقيد روحي ..وكلمة متهم تتردد على ألسنة من حولي .
يعتدل وكيل النيابة في جلسته وأنا بين يديه ..ويبدأ تحقيق طويل ..وسؤال وجواب ..ونظرات شك وريبة ..وتصديق ..وتكذيب ..وتخور قواي وأجهش في بكاء مرير ..وتضيع الكلمات والمعاني .
تتلقفني سيارة الشرطة بعد أن وجهت لي تهمة القتل العمد.. لقضاء فترة الحبس الاحتياطي لحين المحاكمة وصدور الحكم .

فقدان الحرية يفقدك الإحساس بالزمن ..ويجعك ريشة في مهب الريح ..تأخذك حيث تشاء ..وتفقد معها مقاومتك وإحساسك بنفسك وبمن حولك ..وتتلاشي داخلك المعاني وتنفرط الكلمات ..وتكبل الروح .و تنتحر النفس في اللاوعي ..ولا يبقى سوى جسدا يتهاوي.. تتقاذفه الأيدي ..وتركله القرارات التي تحدد مصيره .

سرعة الأحداث التي مررت بها لم تترك لي الفرصة للتفكير واستيعاب أبعادها ..فقد استسلمت لحالة اللاوعي التي أصابتني ووجدت في معيتها بعض الراحة التي تلقيني بعيدا عن الواقع وحقيقة ما حدث .

قضيت فترة طويلة في محبسي انتظاراً للمحاكمة ..وزارني الكثير من أفراد الأسرة والعائلة..وتبادلت معهم أحاديث مقتضبة ..ورأيت الحزن يكسو وجوههم ..ونظرة حائرة في أعينهم..ربما تحمل عتاب . إتهام .. شفقة ..غير أن جميعهم لم يفصحوا عما بداخلهم ..ولم أحاول سؤالهم أو تفسير نظراتهم ..فما أعانية أشد وأقسى مما تحمله صدورهم ..أو يجري على ألسنتهم .

زارني العديد من المحامين ..ووقعت في قبضتهم ..فريسة سهلة المنال ..يسألون ..يستمعون ..يفكرون ..ينصحون ..يكفهرون ..يبتسمون ..يتوعدون ..يحذرون ..يبشرون.

ويجزم الطب الشرعي أن وفاة صالح جاءت نتيجة مباشرة لدفعي إياه ولكزه في صدره ..ويزداد الأمر تعقيدا اتهام بنات أخي بأني قتلت والدهم عمدا للتخلص من مشاكله وسوء سلوكه .

دهشت لشهادة بنات أخي ضدي في المحكمة ..وهم من كانوا في منزلة بناتي ..غير أني التمست لهم بعض الأعذار..وأشفقت عليهم ..فهم مازالوا في مرحلة الصبا ..وقد فجعوا بمقتل والدهم بيد عمهم في جلسة سادها الهرج والمرج ..واختلط فيها الحابل بالنابل ..ويبدو أن الأمر قد أختلط عليهم وذابت الحقيقة في رؤوسهن .

كاد أن يصيبني الجنون وأنا أرى نظرات الشك والاتهام في عيون بعض أشقائي ..مما جعلني أحاول استعادة الأحداث لمحاولة الوقوف على حقيقة تلك النظرات.
و تراءى لي أنه ربما تطرفت في عصبيتي وانفعالي لمحاولة السيطرة على الموقف وخرجت عن شعوري ووجهت هذه الضربة القاتلة إلى صالح بطريقة ربما رآها البعض متعمدة .
زاد حزني وشقائي أن يتسرب إلى نفوس عائلتي هذا الإحساس البغيض.. وأن يسيطر عليهم هذا الفكر المريض ..وأنا الذي أفنيت حياتي من أجلهم .

طالت المحاكمة ..وكثرت أوراق القضية ..وتباعدت زيارة الأشقاء والأصدقاء ..وأذابت الأيام الفجيعة في القلوب..وأخذت أجتر الذكريات .. وأستعيد شريط الحياة .وقسوة موحشة تفترس قلبي .
يتجسد صالح في خيالي ..حركاته ..صولاته ..جولاته ..بكاءه ..ضحكاته ..صوته يتخلل أعماقي ..نظراته تحرق ذاتي .

..أعدو ذهابا وإيابا كأسد تنهشه جروحه ..أتذكر الوحوش في محبسها.. ونظرة الانكسار في عيونها ..فقد أدركت ألان معني أن تفقد حريتك ..ويتخلى عنك عالمك ..وتجابه سموم أفكارك ..وسهام قاتلة تمزق جسدك ..ونيران تصهر قلبك .
جدران تعتصر روحك ..وتذيب أفكارك وتطبق على مشاعرك ..تنزف منك إنسانيتك ولا يتبقى سوى بقايا جسد تحركه وخزات قاتلة بلاوعي أو هدف وتمنعه الراحة والسكينة.

كم تمنيت رحمة حبل المشنقة تلتف حول رقبتي ..تقضي على وحش العذاب الذي انطلق ينهش صدري ويفترس نومي ويقظتي .

وسؤال أخذ يجول بخاطري ..هل يتساوى الجرم الذي يرتكبه الإنسان أيا كان جرمه مع هذه اللحظات القاسية التي تهوى به إلى هوة سحيقة من العذاب والأسى وتقذفه إلى غياهب المجهول ..وتقتلع الرهبة قلبه ويجافي النوم عينه .
أدلى المحامون بدلوهم ..ساقوا حججهم وبراهينهم ..وطالت مرافعاتهم ....وصال وكيل النيابة وجال ..يفند الحجج ..ويدحض البراهين ..هذا مطالباً بالبراءة ..وذاك يطلب الإعدام.

وتأتي اللحظة الفاصلة ويعتلي القاضي منصته ..ويطلق الحاجب صيحته الشهيرة ..."محكمة" .
يلف الصمت الجميع ..وتصوب الأنظار نحو القاضي ..وتكاد تهوي القلوب انتظارا لسماع الحكم الذي طال انتظاره ..وبينما الجميع منتبه وكأن على رؤوسهم الطير ..أخذت أجول بين الحاضرين بنظري متفحصا الجلوس من الأهل والأصدقاء ..وانفعالات المحامين وقد تراصوا في الصفوف الأولى بعدما تباينت توقعاتهم فمنهم المفرط في تفاؤله..والأخر قد أفرط في التشاؤم.
وبينما هذا حالي و أمواجا تجتاحني من المشاعر المتدفقة التي تطيح بكل ما عداها وتلقى به إلى العدم وتفصلني عن الواقع...انتبهت على صوت هرج ومرج يسود القاعة ..وجلبة تعم الحضور ..... ويلملم القاضي أوراقة بعد النطق بالحكم ..ويغادر منصته .
انظر يمينا ويساراً متأملاً الوجوه ... ولا أبالي .

"تمت"

إبحار في الماضي

رائحة الخبز الساخن مازالت تملأ خياشيمي ..تثير أشجاني وتدغدغ إحساسي..أجري مسرعا مع أقراني من أولاد خالتي صلاح ورفعت وعربي ومعنا خالي عشري فهو أخر العنقود في خلفه جدتي.. وتزامن وقت ولادته مع ولادة شقيقتي نادية التي تكبرني بعامين..وكذلك ولادة ابن خالتي صلاح ....فهكذا كانت الحياة في الزمن

الفائت .. تميزت بكثرة الأولاد وحب "الخلفة" الكثيرة واعتبارها من علامات البيت السعيد وعزوة وقوة لصاحبها ..وكثيرا ما تحمل الأم وبناتها معا ويلدن أولادهن في نفس العام ..فيقترب الخال بعمره مع أولاد أخواته ..وفي ذات الوقت تزداد الفوارق العمرية بين الأشقاء فتتسع الهوة بين الأخ الأكبر الذي ولد مبكرا ..وشقيقه الأصغر الذي جاء مولده مع أواخر العمر ..حتى أنه يعد والد معنوي له يضفي عليه الاهتمام والمحبة وينالـه منه الكثير من الاحترام والتقدير .
وهكذا صرنا ثلاثتنا عشري وصلاح وأنا ..خال وأبناء أخوات ..أقارب وأصدقاء جمع العمر بيننا فنشأنا صغارا نلعب سويا وتجمعنا ذكريات وأحداث كثيرة وحدت بين طفولتنا وصهرت حياتنا معا .

نسرع سويا نحمل الخشب وأفرع الشجر المخزنة فوق سطح بيت جدتي بعد أن ضربتها الشمس وامتصت رطوبتها ..ونتسابق من يحمل الكمية الأكبر ..ومن يصل أسرع من الأخر ..ونتجمع معا في نقطة تلاقي وانطلاق عند جلسة جدتي أمام الفرن البلدي حيث أعدت مجلسها وشمرت عن ذراعيها وتسيدت الموقف .. فنسلمها ما نحمله من خشب وأفرع شجر ..وتدسها بدورها في باطن الفرن بعد أن أشعلته وبدأ الدخان يتصاعد من جنباته .. ونقف على أهبه الاستعداد في انتظار أوامرها لنا باستكمال تحميل الأخشاب أو الاكتفاء بما أحضرناه ..ونحن سعداء بهذا العمل الموكول لنا وهذا التجمع الذي نعده عيدا بغير عيد ..فاليوم مليء بالأحداث وسوف تجتمع العائلة كلها ..و يقوم كل فرد بالعمل المكلف به خير قيام .
تزعمت جدتي هذه المنظومة واحتلت الصدارة أمام فرنها ..وبدأت بعين خبيرة متمرسة ..ونظام مرتب الخطوات .. أكسبتها الأيام خبرته وصهرتها في بوتقته ..فهاهي تحمي الفرن وتملئ جوفه بالحطب ..وكلما خبت ناره زادته من "أقراص الجلة" التي تشعله وتزيد لهيبه ..وتتصاعد ألسنة اللهب ويفوح دخانها معلنا لسكان الحي وأهله أنه يوم عجيننا وخبيزنا ..فتسارع الجارات كل منهن تعرض خدماتها ومشاركتها ..وتأتي أخريات ببعض من طواجن اللحم أو كيزان البطاطا البيضاء لتسويتها على نار الفرن الهادئة بعد انتهاء مرحلة الخبيز ..وتستمر جدتي في ضبط حرارة الفرن ومتابعته حتى ينقطع دخانه ويستعر لهيبه ويحمى باطنه ويصبح جاهز لاستقبال أقراص العجين التي عملت خالتي وأمي على إعدادها بعد أن قرصن العجين وقطعنه إلى قطع متساوية تم وزنها بدقة بميزان يدوى وخبرة الأيام ..وقمن بطبطبة هذه القطع لتتحول إلى قرص من العجين يجرحنه "بشوكة نخيل " بطريقة دائرية حول تماسه ويقمن برصه علي طبالي مفروشة ردة ..ويتركن هذه الأقراص فترة من الوقت تحت أشعة الشمس حتى تختمر وتنتفخ وتصبح جاهزة لملاقاة نار الفرن .
وفي داخل الدار تتسارع بنات العائلة في همة ونشاط ..كل منهن تعرف عملها وتقوم به على أكمل وجه وهن سعيدات بهذه المهمة وكأنهن يجتمعن في نزهة خلوية تجلب لهن السعادة ..وتسري بينهن روح الدعابة والفكاهة وهن منكبات علي أعمالهن ..حيث تتولى شقيقتي الكبرى نادية ومعها بنات خالتي سحر وليلى تجهيز العجين

حيث يملئن الماجور بالدقيق ..ويضفن إليه الماء وقليل من الملح المحسوب بعناية ..ويبدأن في عجنه وتقليبه بالتناوب.. وقد شمرت من تجلس منهن أمام الماجور عن ذراعيها وأخذت تضرب بقبضتيها بقوة وبكلتا يديها حتى المرفق في عجينها حتى يصبح متماسكا وجاهزا تماما لعمل الأقراص .

تتلقف جدتي أقراص العجين وتضعها بحنكة على مطرحة العيش ذات الذراع الطويلة وتلقي به بعناية داخل الفرن ..وتستمر في رص أقراص العجين حتى تمتلئ أرضيته بها تماما..وتنتظر حتى يمر الوقت الكافي ثم تبدأ في سحب أرغفة" العيش الشمسي" بعد تمام تسويتها ..وتتلقف خالتي الأرغفة الساخنة وتقوم برصها في "مشنة "حتى تمتلئ فتأتي بأخرى وهكذا حتى تنتهي من أخر رغيف تم تسويته ..ليبدأ بعد ذلك تسوية طواجن اللحم والخضار وكيزان البطاطا البيضاء التي ينتظرها أطفال العائلة وكل منهم يُمني نفسه بكوز بطاطا ساخن ..ونترقب بفارغ الصبر تسوية ما أعدته لنا أمهاتنا من أحصنة مصنوعة من عجين الخبز مكافأة لنا على ما بذلناه من جهد ..وكذلك تنتظر البنات تسوية عرائسهن التي صنعنها .

ينتهي النهار وقد انتهت جدتي وبناتها من خبيزهم ويومهم المضني ..وأطفأت الفرن نارها وخمد دخانها ..وتشبعت الدار برائحة "العيش الشمسي " التي تملئ الخياشيم وتسيل اللعاب لالتهامه وهو ساخن .
وتنشغل بنات العائلة في تجهيز الغذاء ورص الأطباق على الطبلية التي توسطت الدار ويبدأ الجميع في التهام طعامهم بنهم شديد وسعادة غامرة .

في صباح اليوم التالي وقفت مع أولاد العائلة وقد تجرد كل منا تماما من ملابسه وانتظر دوره في الاستحمام تحت مياه الطلمبة اليدوية ..وقبض خالي الأكبر محمود على ذراعها الحديدي وأخذ في تحريكه بقوة لأعلى وأسفل لتنهمر المياه من فوهتها غزيرة متتابعة تتلقفها أمي ومعها ليفه خشنه وصابونه "نابلسي شاهين "تدعك بها أجسادنا اللينة في خشونة وقوة ..ونحن نصرخ تارة ونضحك تارة أخري ..وهي تمسك بنا خشية أن "نتزفلت" ونقع في حوض الطلمبة..وتأخذ الهمة خالي في تحريك ذراع الطلمبة ويندفع ماءها غزيرا يزيل أثار الصابون عن رؤوسنا وعيوننا وسط صرخاتنا وضحكاتنا ..ويظل هذا حالنا حتى ننتهي من هذا "الدش" الجماعي الذي جمع أطفال العائلة معا ..لتتلقفنا خالتي عند حافة حوض الطلمبة حيث تجهز لكل منا ملابسه ..وتقوم بتنشيفنا بفوطة أعدتها لذلك .. ثم تساعدنا في ارتداء ملابسنا واحد يلوا الأخر ..وسرعان ما ننتهي وننطلق جميعا بعيدا عن الدار حيث اللهو واللعب البريء الذي يأخذنا اليوم بأكمله .

هذه إجازة نهاية العام الدراسي وقد انطلقنا جميعا ..إخوتي وأبناء خالتي ..تعمنا فرحة غامرة .. فجميعنا في أوائل مرحلة الدراسة الابتدائية..وقد تخلصنا من عبئ سنة دراسية لم نعتاد بعد أيامها ولم نتعود فصولها وكتبها ودروسها .. وكنا قد اعتدنا

كل عام على زيارة جدي وجدتي.. حيث كانت هذه الزيارة هي عيدنا الذي نعد له عدته ونحسب له أيامه ..فجدتي تسكن في القاهرة في أحد الأحياء الشعبية العريقة بعد أن نزحت من الصعيد مع جدي منذ وقت طويل مثلهم مثل كثير من الأسر التي هجرت الصعيد بحثا عن الرزق والحياة الأفضل ..فانتقلت لهذا الحي الشعبي الذي أصبح ملتقي ومستقر للأسر الصعيدية وموطنا لهم حتى انه تحول إلى مستعمرة صغيرة يسكنها أهل قبلي في قلب القاهرة الكبرى ..و ظلت عاداتهم وتقاليدهم راسخة لم تتغير.. فقد انتقلوا إلى هذا الحي بفكرهم وعاداتهم ولم يستطع الزمن أن يغير منها شيء.. ولم يزدهم اختلاطهم بأهل القاهرة إلا تمسكا بهذه العادات والتقاليد الأصيلة التي غرست بداخلهم وانصهروا بداخلها .

وأصبح مجتمعهم كمستعمرة احتلال تمركزت في هذه البقعة من الأرض وحافظت على تراثها وفكرها وابتعدت تماما عن تأثرها بمن غزتهم واختلطت بثقافتهم ..فكانت القاهرة تعج بأضوائها وصخبها وزينتها ولياليها الساهرة ومحلاتها العامرة ..حتى إذا ولجنا الحي الذي تقطنه بعثة الصعيد وجدناه شيء مختلف تماما ..ووجدنا قاطنيه غير البشر اللذين تكتظ بهم شوارع القاهرة ومبانيها .

وتبدأ رحلتنا من محافظة الإسماعيلية تلك البلدة الجميلة ذات التخطيط الفرنسي .. النائمة في أحضان الطبيعة ..تحدها قناة السويس بمياهها الزرقاء الصافية ..وتاريخها العريق وما يحمله من أمجاد الأجداد ..وتربطها بسيناء ..أرض الفيروز ..بوابة مصر الشرقية التي دارت على أرضها رحى الكثير من المعارك الحربية وارتوى ترابها بدماء أبناءها الذكية ..ودُحر على أرضها أعتى جيوش الاستعمار على مدار تاريخها الطويل .

وتنطلق رحلة الإجازة الصيفية ونبدأ في الاستعداد لها قبل موعدها بنحو أسبوع كامل ..حيث تبدأ والدتي في تجهيز الحقائب وإعداد الزيارة التي سوف تحملها معها إلى جدتي في القاهرة ..وتقوم بالترتيب والتنسيق مع خالتي وأولادها لتلك الزيارة التي ننتظرها كل عام ..وتتملكنا الفرحة الغامرة بهذه الرحلة التي تأخذنا إلى عالم كبير ومجتمع غريب علينا ..وكأننا ننطلق إلى غياهب الدنيا الواسعة وآفاقها الرحبة ..ويقوم أبى بتجهيز تذاكر القطار الذي سوف يقلنا إلى القاهرة ..فوالدي يعمل بإحدى المصالح الحكومية التي توفر لموظفيها تذاكر مخفضة الثمن ..فيتقدم والدي بطلب لأخذ الموافقات على استخراج هذه التذاكر قبل السفر بعدة أيام حتى تكون جاهزة قبل موعد الرحلة بوقت كافي .

ويأتي اليوم الموعود وأحمل مع والدي الحقيبة الخشبية الكبيرة التي نضع بها ثيابنا ومتعلقاتنا ..ويساعد إخوتي في حمل بعض الحقائب الصغيرة التي تحوى بعض متطلباتنا وأغراضنا التي نحتاج إليها في هذا السفر الطويل البعيد ..ونحمل معنا

"مشنة أو اثنتين "تمتلئان بما أعدته والدتي وقامت بتجهيزه لجدتي من طواجن لحم وحلويات وفاكهة وغير ذلك مما تتطلبه هذه الزيارة ..
وبمجرد أن تطأ أقدامنا عربة القطار أنفلت من بين أيديهم لأحتل مجلسي بجوار الشباك..بينما ينشغل والدي في ترتيب ووضع الحقائب على أرفف العربة ..ويدق الجرس وأنتظر أن يتحرك القطار ويطلق صفارته ويتصاعد دخانه ويسارع يسابق الريح ....استمتع كثيرا بإخراج رأسي خارج الشباك حيث يضرب وجهي تيار من الهواء البارد أعتدت عليه كلما سافرت وأصبح شيء محبب إلى نفسي....وسرعان ما أن أبدأ في عد الأشجار وأعمدة البرق والهاتف المنصوبة على امتداد السكة الحديد حتى القاهرة والتي يخيل لي أنها تسرع بجوارنا وتسابقنا ..وتقع عيني على المساحات الشاسعة من الأراضي الزراعية وقد ازدانت بسنابل القمح الذهبية والمزروعات الخضراء الأخرى والتي تشكل في مجملها منظرا طبيعيا خلابا يفتقده أبناء المدن ممن تربوا بعيدا عن أحضان الريف وروعة مناظره ..وأرقب الفلاحين في سعيهم وعملهم بين زارع وحاصد ..ولا يفارق ذاكرتي منظر البقر وهو مغمى العينين يدور بالسواقي يجلب مياه الترع لري المزروعات .
وبين الحين والأخر يفاجئني مرور قطار في الاتجاه العكسي ..وصفارته القوية تنطلق معلنة و محذرة قدومه ..ليلتقي القطاران كلا في طريقه مع جلبة وأزيز يرج القلوب وكأنهما يتبادلان التحية ويشدان من عزم بعضهم بعض .
وكثيرا ما كنت أرقب سيارة أو أكثر تسير على طريق الإسفلت الموازى لطريق قطارنا ..وأتابع حركتها وسرعتها وأسعد كثيرا كلما تأخرت عنا واستطاع قطارنا أن يسبقها بمسافات ..وسرعان ما أجدها تقترب من سرعتنا مرة أخرى وتتجاوزنا بمسافة طويلة ..فيصيبني نوعا من الإحباط والحزن ..فقطارنا أسرع الكائنات على وجه الأرض ولا يجب أن تسبقه سيارة أو غيرها .
أظل على هذا الحال في رحلة شيقة ومناظر جديدة وقلب يهفو يسابق الوقت والزمن في سعادة لا تضاهيها سعادة ..حتى نصل إلى محطة مصر "باب الحديد" ببنيانها الضخم وقطاراتها المتراصة على الأرصفة المرقمة كل حسب المحافظة المتجه إليها قطارها ..فهذا رصيف رقم "ا" وذاك رصيف رقم "2" وهكذا .
نستعد للنزول من القطار ويبدأ أبي في ترتيب أولوياتنا.. فتمسك والدتي بأيدينا أنا وشقيقتي نادية ..وبيدي الأخرى يمسك أخي عادل ..وتمسك نادية بيد أخي الأصغر أحمد.. لنكون معا سلسلة أسرية تتشابك عن طريق الأيدي ..وتنهال علينا نصائح والدي آمرة تارة وناهية تارة أخرى..و في نفس الوقت يستعد بتجهيز الحقائب ونقلها من أرفف العربة ووضعها بجانبه استعدادا للنزول بعد أن دخل القطار المحطة وهدأت سرعته ..وسرعان ما يحتل أبي شباك العربة بعد أن يبعدني عنه قصرا ..ويجول بنظره بين الناس على رصيف القطار باحثا بعينيه عن أحدا ينتظرنا في المحطة ..وسرعان ما يعلو صوته مناديا على أخوالي محمود وعلي .

محمود .. علي ..محمود .. هانحن هنا اتبعونا ..وألمح أخوالي محمود وعلى يسرعان الخطى بمحاذاة القطار حتى لا يفقدوا العربة التي تقلنا..ويستمران في

متابعتنا على المحطة حتى يقف القطار تماما ..ونبدأ في النزول وسط جحافل البشر من الركاب والكل يندفع نحو الأبواب يتسابق ليخرج قبل الأخر ..وفى نهاية المطاف نجد أنفسنا على رصيف المحطة بين أحضان أخوالي وحرارة لقائهم .

بعد تبادل السلامات السريعة يحمل أخوالي الحقائب مع أبي ويسيران بنا إلى خارج المحطة وسط طوفان من البشر ..ويتنامى إلى سمعي أصوات الحمالين تعرض خدماتهم لحمل حقائب الركاب القادمين مع القطار وتوصيلها إلى خارج المحطة حيث ينتظرهم الأهل والخلان أو إلي مواقف المواصلات التي تقلهم إلى المكان الذي يقصدونه..يتخلل هذه الأصوات نداءات بعض الباعة الجائلين على بضاعتهم ..وألحان محببة إلى نفسي يتغنى بها بائعي الكوكاكولا وبعض بائعي الساندويتشات الصغيرة .
ينطلق صوت الميكروفون ينبه الركاب بقدوم أو مغادرة أحد القطارات..وصفارة قطار تنطلق معلنة مغادرته المحطة ..وصفارة لقطار أخر معلنة قدومه من رحلته .
تتملكني الدهشة والفرحة وأنا أرى هذا العالم الغريب الذي يعج بكل هذه الحياة والتي تنطلق منها بداية أجازتنا السعيدة التي نحلم بها منذ أكثر من أسبوع مضي وها هي تتحقق ونعيشها بزخمها وفرحتها واشتياقنا إليها .

نصل إلى بيت جدتي ونجدها جالسة في انتظارنا خارج الدار على مصطبة إسمنتية تتخذها مجلسا لها بعض ساعات النهار أو الليل هروبا من شدة الحرارة داخل البيت خاصة في أيام الصيف الطويلة.. ومتنفسا لها ترى العالم الخارجي من خلاله ..نرتمي في أحضانها وتمطرنا بقبلاتها ثم ندلف إلى داخل الدار حيث السلامات والقبلات الحارة بين جدتي ووالدتي ..ونعيش فرحة اللقاء ونسعد بحرارته فينة من الوقت ..وسرعان ما أنطلق مع خالي عشري نبحث عن صلاح ابن خالتي التي سبقتنا بيومين في سفرها مع أبنائها إلى القاهرة ..ونتوجه ثلاثتنا على الفور إلى حيث يجلس جدي على المقهى القريب من البيت ..نصافحه في وقار ويقبلنا سريعا ويدخل يده في جيبه ويعطي كل منا "ورقة من فئة الخمس قروش "نتلقفها في فرح وسعادة وكأننا ملكنا خزائن الأرض وامتلأت جيوبنا بأموالها ..فقد كان هذا "الشلن " يعني لنا الكثير في هذه الأيام ..ولازال إحساس الفرحة بهذه العطية أجده في نفسي حتى الآن ولا أنساها لجدي وأتذكرها له دوما ..فقد كان جدي رجلا وقورا له هيبة تفرض نفسها على من حوله ..وعلى قدر حبنا له وعطفه علينا فقد كنا نخشاه من نظرة الخوف التي نراها في عيون جدتي وبناته منه..ومدى الاحترام والتقدير الذي يكنه له والدي وزوج خالتي وكل من يتعامل معه ..فلم نكن نرى له ابتسامة إلا قليلا ..وضحكاته معنا محسوبة بحساب دقيق لا يتجاوزه ولا نطمع في المزيد .

ودائما جدي مهندم في ملبسه ..فما أراه إلا وهو يرتدى الجبة والقفطان ..وعمامته فوق رأسه ملفوفة بشاش أبيض ناصع البياض تم ضبطه بعناية .. وشاربه تم تسويته

ولف أطرافه بدقة بالغة .. و في يده عصا مزخرفة ببعض النقوش الفرعونية ومغلف جزء منها بجلد الماعز يحملها دوما رمزا للوجاهة ونوعا من أنواع الفتونة التي كانت منتشرة هذه الأيام .

وكانت كلمة جدي تسري على الجميع ..وأوامره ونواهيه نافذة لا ترد.. حتى أبى وزوج خالتي وهما مِثال الرجولة الكاملة أمامي كنت أرقبهما في حضرته وقد تملكهما نوعا من الاحترام الزائد وخشية الوقوع في الخطأ ..ووالدتي وخالتي كن يعملن له ألف حساب ويخشين غضبته وعصيان أوامره ..حتى أن والدتي مع ما تتمتع به من قوة شخصية و ملكة من ملكات الزعامة النسائية وسط جيرانها ونساء العائلة لما تتصف به من رأي صائب وعقل راجع وقدرة إقناع ميزتها عن كثير من نساء هذا الزمن وجعلتها دائما في الصدارة ..ورغم وجود والدي معها وإنجاب أربعة أطفال فقد كانت تحمل الملاية اللف السوداء في حقيبتها .. وهى ملبس بنات البلد في الأحياء الشعبية في تلك الفترة ..وتقوم بارتدائها عند اقترابنا من الوصول إلى بيت جدي خشية لقاءه وهى ترتدي فستان خروج لم يعتاد رؤيتها به ..وبالطبع خالتي لم تجرؤ على فعل ما فعلته أمي وظلت بالملاية اللف ترتديها طوال حياتها .

وكثيرا ما أربط بين شخصية جدي و "سي السيد" في رائعة ثلاثية نجيب محفوظ..غير أنه كان يمثله في الجانب المُهاب فقط ..فما علمت في جدي رحمه الله أي سلوك عبثي أو هزلي ..وكان يتملكني العجب من جلوسه الدائم في هذا المقهى القريب من البيت ..حتى أنه قد رسخ في ذهني مجلسه مع أصدقاءه وبيده مبسم خرطوم "الشيشة "يشد أنفاسها و ينفث دخانها بسلطنة ..ويرشف من فنجان القهوة ..وقد ارتبطت صورته في ذاكرتي بهذا الوضع ..وكنت أتساءل مع نفسي .. متى وأين يعمل جدي ؟وكيف يأتي بمصاريف البيت ؟وما هى حياته خارج هذا المقهى ؟..وسرعان ما أطرد هذه الأسئلة عن رأسي وأنسى أمر جدي وحياته..فقد حصلت منه على "الشلن "وهو ما أبغيه ولا يهمني في الأمر سواه .

ننطلق بعيدا عن المقهى ونسارع إلى كورنيش النيل القريب من الحي ..ونقضى يومنا في حديقة النزهة حيث الأشجار والخضرة واللعب ومعاكسة الفتيات الصغيرات على الرغم من باكورة سنين عمرنا كنوع من الإرضاء لذكورتنا .

وننطلق من الحديقة إلى سينما فؤاد حيث حفلة الساعة الثالثة عصرا.. ونبتاع ثلاث تذاكر قيمة كل منها "قرش صاغ "ونأخذ مع التذكرة "كرملة نادلر " باقي الحساب ..وندخل السينما ونشاهد عالم أخر من الحياة لا نراه إلا في القاهرة وأجازاتها ..حيث

يبدأ العرض بفيلم عنتر بن شداد وأخيه شيبوب ..و محبوبته عبلة ..وكيف يحارب العالم كله من أجلها ..و يصرع العشرات بيدا واحدة ..ويزمجر فيلقي الرعب في قلوب أعداءه ..وقبل أن نلتقط أنفاسنا وتهدأ أعصابنا من أحداث الفيلم وحروبه ..يعقبه فيلم أخر أجنبي بعنوان "سبعة رجال من حديد" ..وكيف استطاع هؤلاء الرجال أن يقهروا أعدائهم ويمحقوا كل من يقف أمامهم ..ونتعجب من تفننهم في طرق القتال والنيل من العصابة التي تقف أمامهم وتتحداهم.. ونجلس مشدوهين محملقين في أبطال الأفلام وتأخذنا الحمية والحماس أن نصبح مثلهم ونعيش عالمهم ..وسرعان ما أن ينتهي يومنا ونعود أدراجنا إلى البيت .

نستيقظ مبكرا في اليوم التالي خشية أن تضيع بعض سويعات من الإجازة دون استغلالها الاستغلال الأمثل ..نتناول فطورنا على عجالة وننطلق إلي حديقة الحيوانات في الجيزة ..يقودنا في هذه الزيارات خالي عشري الذي ولد بالقاهرة ويعرف دروبها ومسالكها جيدا مع حداثة عمره .. ولا نخشى ونحن في معيته أن نضل الطرق أو نضيع عن هدفنا ..وبرغم حداثة عمرنا وضحالة تفكيرنا كنا نضع الخطط الكاملة للتمتع بالإجازة والاستفادة بأيامها على أكمل وجه .

قضينا في الحديقة يوما كاملا استمتعنا بخضرة أشجارها ونباتاتها.. وداعبنا القرود في أقفاصها وتبادلنا معهم القذف بالفول السوداني ..وتملكني شعور بالحسد لبعض القردة وأنا أراها تلتهم أصابع الموز التي يقدمها لها بعض رواد الحديقة بنهم ولذة ..وكأنها قرأت في عيني ما تكنه نفسي لها فعمدت على زيادة حنقي عليها بقيامها بقذف القشر في وجهي .

فقد نشأت أحب الموز وأشتهيه وأجد في طعمه لذة لا يضاهيها لذة فاكهة أخري ..لذلك لم يكن من السهل أن أرى هذه القرود ترتع مع أصابع الموز وأنا أتفرج عليها ولا ينالني منها سوى القذف ببقايا قشره .

تركنا عالم القرود حتى لا نصاب بإحباط أكثر من ذلك ..وذهبنا لبيت الأسود والنمور ..وأخذنا في معاكستها حتى نرى أنيابها القاتلة ونستمع إلى أصواتها وزئيرها الذي يهز المكان ويبعث في النفس خوف فطري من هذه الوحوش المفترسة حتى وإن كانت حبيسة الجدران.

ابتعنا بعض الساندويتشات الصغيرة وجلسنا بالقرب من بيت النعام نأكل ونستريح بعض الوقت ..ثم عاودنا التجوال بين أقفاص الحيوانات والطيور المختلفة ..نداعب هذا ..ونتراقص أمام ذاك ..ونقلد تلك ..ونلعب الكرة مع بعض الصبية ..ونتركهم إلى آخرين ..ويمضى الوقت سريعا وينتهي موعد الزيارة وتغلق الحديقة أبوابها ..لننطلق عائدين إلى البيت وقد أنهكنا التعب وأخذ منا الإرهاق ما أخذ ..لنقضي بعض الوقت مع الأهل والأقارب وسرعان ما يغلبنا النعاس ..فنندس في فراشنا ونخلد إلى نوم عميق.

صباح جديد ..نستقبل يومه الذي لا يختلف عن سابقه حيث نتجمع سويا ونستأنف تنفيذ برنامج الرحلة العشوائي الذي بدأنا تنفيذه منذ خطت أقدامنا أرض المحروسة .. فنهرول إلى محطة الترام ونصعد سريعا متجهين إلى زيارة سيدنا الحسين وبعده نجنح لزيارة السيدة زينب رضي الله عنهما وأرضاهما ..ولا يفوتنا في تلك الرحلة

أن نراقب "كمساري" الترام مراقبة دقيقة ونعرف في أي عربة مكانه حتى إذا ما توقف الترام في إحدى المحطات نزلنا من العربة التي تقلنا وتوجهنا للعربة التي غادرها الكمساري بعد أن حصل التذاكر من ركابها ..فلم نكن نمتلك القدرة على مصاريف الرحلات والزيارات لذلك كنا نعمد على التهرب من المحصل بشتى الطرق حتى وإن تطلب ذلك ترك الترام بأكمله وانتظار الترام الذي يليه ..وكنا في سبيل ذلك نفعل الأفاعيل ونتمرس الحيل حتى لا نقع في قبضته ويطالبنا بثمن التذكرة وغالبا لا يجده معنا فيضطر لإيقاف الترام وإنزالنا في أقرب محطة ..وكنا نجد متعة لا يضاهيها متعة أخرى في محاولاتنا التهرب من الكمساري..ونظل فترة من الوقت نتندر على كيفيه هروبنا والخطط التي اتبعناها للفوز بهذه الرحلة المجانية وما حدث فيها من مواقف مضحكة أحيانا ومحرجة أحيانا أخرى.. وأتذكر أننا كنا في كثير من الأحيان لا نجد ما نفعله سوى ركوب الترام والتنزه به والتلاعب بالكمساري بافتعال الحيل للهروب المستمر منه .

ولا يفوتني على ذكر هذه الزيارات أن اذكر واقعة ظلت محفورة في رأسي ولم تغادره ..وذلك عندما أرادت والدتي في إحدى الإجازات أن تصطحبنا معها أنا وإخوتي نادية وعادل وأحمد لزيارة سيدنا الحسين.. وكنا وقتها في مراحل الطفولة المبكرة لا نعي من أمرنا شيء ..وما أن وصل الترام المحطة حتى قذفت بنا داخله الواحد تلو الأخر على أن تلحق بنا بعد أن نصعد جميعا ..وما أن انتهت منا وهمت بالصعود خلفنا حتى تحرك الترام بنا وتركها على المحطة تصرخ وتولول ضياع أبنائها ..ونحن ننظر إليها باكيين وصدى صرخاتها يرن في أذاننا ..وبفطرة الطفولة والخوف من المجهول وشعورنا أننا ذاهبون للضياع بلا رجعة ..أدركنا ما يجب علينا فعله دون تفكير أو حسابات للعواقب ..فما كان منا إلا أن قفزنا الواحد تلو الآخر كجرذان هاربة من جحرها يتبعهم قط جائع ..لتتلقفنا الأيدي على الطريق وتظل ذكرى لا يمحوها الزمان .

رحلات الصيف القاهرية كانت هي الحلم والحقيقة ..عن طريقها تفتحت حواسي وزاد إدراكي ..فكنت كعصفور صغير يسكن عش في شجرة وينطلق منه سابحا في فضاء الكون يرتع فيه وينهل من مناظره الخلابة وثقافته المختلفة وربوعه الفسيحة ..فقد زادت مداركي واتسع أفقي وأنا في هذا العمر الصغير ..حيث جبت معالم القاهرة وضواحيها ..واستمتعت بمزاراتها ومبانيها ..وعَلقت آثار هذه الزيارات في عقلي ونقشت في وجداني ..حيث كنت انتظر هذه الرحلات وأعدها مكافأة أخر العام ..فقد عشت طفولة حقيقية تشربت باستيعاب الزمن والأحداث بسعة أفق وأدراك تام .

وقد أدرك أهلنا بفطرة سليمة دون علم أو علام متطلبات تلك المرحلة وحوائجها فأطلقوا لنا الزمام ننطلق على "التراك" نتسابق ونتصارع ونلهو ونستوعب ..وأمسكوا بأيديهم اللجام حتى لا نضل و نجمح بعيدا عن الطريق ..فعشنا طفولة

متوازنة خلقت بداخلنا إحساسا بالاستقلالية والاعتماد على الذات والقدرة على بلورة الأحداث وتخطي الصعاب.

انتهت الإجازة وعدنا إدراجنا إلى بيتنا في محافظة الإسماعيلية ..وبدأنا نستعد لدخول المدارس ..وكنت حديث عهد بها ..وتمثل أيامها عبئا ثقيلا على كاهلي ..فهذا عامي الثاني بالمدرسة الابتدائية التي تبعد عن بيتنا عدة خطوات ..ومع ذلك ينتابني شعور أني هاجرت إلى المجهول .

عدت للاستيقاظ المبكر..وارتداء المريلة الطويلة ..وتعليق الكارفات الأحمر حول رقبتي ..وحمل حقيبة الكتب المصنوعة من القماش الأبيض .

أمسكت بيد شقيقتي نادية التي تسبقني بعامين دراسيين وخطونا معا خطوات سريعة نحو المدرسة حتى نلحق بطابور الصباح ..ووالدتي تتبعنا بنظرها من شباك شقتنا الذي يطل على المدرسة ويكشف الطريق إليها حتى تطمئن أننا قد اجتزنا بوابتها ودخلنا ملعبها ..اترك أختي وأتوجه للطابور الذي يصطف فيه تلاميذ فصلي ..ويبدأ شعور بالغربة يتملكني وإحساس بالخوف من عالم بلا حامي أو منقذ .

فلازالت آثار العام الماضي تترك آثارها في نفسي وتجعلني نافرا من الدراسة والمدرسة ..فمن سوء حظ مدرستنا أن بليت بأحد المدرسين من قساة القلوب ..الذي أخذ على عاتقه مهمة زرع الخوف والجبن في قلوبنا ..وغرس كره المدرسة وأيامها في نفوسنا ..فلازلت أشعر بوقع ضربات خيرزانته على جسدي ويدي وقدمي..وفي أذني صوت بكاء زملائي وصراخهم وهم يتألمون ويتوجعون ..فقد تفنن هذا المعلم في اختراع الوسائل و الأساليب المختلفة لعقابنا وإرهابنا ..وتنوع عقابه من الضرب إلى السب ..وتجاوز ذلك إلى إرهابنا وتهديدنا بدهان أجسادنا بالعسل والقذف بنا إلى غرفة الفئران لتلتهمنا وتنهش لحومنا ..وكان يشير إلى إحدى حجرات المدرسة المغلقة دائما ويحاول إيهامنا أنها مليئة بالفئران المفترسة التي تنتظر المقصر منا .

كان وقع هذه التهديدات أليما ..وشكلت نقطة فارقة في حياتي ..وتركت أثرا غائرا في نفسي لم أستطع التخلص منه إلا بعد عمر طويل .

تسارعت الأيام ودارت عجلتها وكاد النسيان أن يمحو ذكريات الطفولة في أيام الدراسة الأولى إلا من بعض الذكريات القليلة التي ظلت عالقة لما لها من دلالات أو أثر تركته في النفس ..فكثيرا ما تذكرت وأنا أبتسم في خجل عودتي من المدرسة في

اليوم الأخير من الدراسة في الصف الأول الابتدائي ..وقد تسلم كل منا بصلة بفروعها الخضراء كان كل تلميذ قد أحضرها في بداية العام وقام بمتابعة نموها في كوب زجاجي تحت إشراف معلمة الفصل ..وكانت البصلة قد نمت أطرافها وامتد جذرها لمدة عام كامل ..ومع انتهاء العام الدراسي سلمت المعلمة كل منا زرعته ليفعل بها ما يشاء ..وينتابني الخجل عندما أتذكر أني وضعت البصلة بالكوب الزجاجي المليء بالماء في حقيبة المدرسة المصنوعة من القماش وبداخلها الكتب والكراريس ..وكيف ارتوت الحقيبة وما تحمله بماء البصل ..وخطت المياه خطا طويلا من المدرسة إلى البيت وهى "تخر "وأنا أسير بها غير مبالي .

استيقظت صباح يوم قائظ الحرارة على صوت أزيز طائرات تغدو وتروح في سماء محافظتنا الإسماعيلية ..وسمعت والدي يتحدث مع أحد جيراننا عن بيان سمعه من الإذاعة يعلن اندلاع الحرب مع إسرائيل ..وكان يوم 5 يونيو1967م.
لم أكن أعي يومها معنى كلمة حرب و سلام أو هزيمة و انتصار ..ولكنني أدركت أن شيء غير عادي قد حدث.. خاصة بعد أن رأيت البشري تملئ وجوه من حولي ..وكلهم فرحين بالنصر المبين الذي انتظروه طويلا ..وسوف يتحقق وتُهزم إسرائيل شر هزيمة جراء عدوانها على إخواننا الفلسطينيين .
كانت فرحتي الكبرى تتمثل في عدم الذهاب للمدرسة فهذا هو ما يعنيني في الأمر ولا يهم بعد ذلك شيء..ويكفينا انتصار وفرحة إغلاق مدرستنا ولو كان لهذه الحرب من حسنة غير هذا فيكفيها .
تغير إيقاع حياتنا اليومية منذ ذلك اليوم ودخله مفردات جديدة علينا وبدأنا نسمع عن القتال ..والأسرى ..واليهود .. وبدا الجميع منشغل بالاستماع إلى الإذاعة وبياناتها ووصفها الانتصار العظيم الذي حققه جيشنا في الساعات الأولى من الحرب ..وأعداد طائرات العدو التي تهوي بالمئات..واقتراب قواتنا من الدخول إلى تل أبيب ..وأخذ الجميع في تبادل التهاني ..وسادت الفرحة والبشرى الأرجاء .
وسريعا أقبل الليل وخيم الظلام وسمعنا للمرة الأولى في حياتنا انطلاق صفارة الإنذار تعلن عن غاره جوية لطائرات إسرائيلية على بلدنا ..وينقطع النور ويسود الظلام ..ونستمع إلى كلمات الكبار المطمئنة من الأهل والجيران ..ولكن سرعان ما ينقلب الحال ..ويصم آذاننا صوت انفجار يتبعه ضوء ساطع يضيء السماء كأنها في ظهيرة يوم مشمس ..فقد أطلقت إحدى الطائرات المعادية طلقات كاشفة أضاءت السماء وجعلت ليلها نهار ..وفجأة انهالت القذائف والصواريخ مدوية من كل حدب وصوب ..وساد الهرج والمرج المكان ..وأسرعنا مع الجيران بالنزول بأقصى سرعة إلى الطابق الأرضي ..وتجمعنا في شقة جيراننا في الدور الأول بالعمارة التي نقطنها حتى نحتمي من هذه الصواريخ و نتفادى القذائف التي تملأ السماء .

استمر هذا الوضع حين من الوقت ..ظلام دامس ..يعقبه طلقات كاشفة ..يعقبها أزيز صواريخ وأصوات انفجار ..ودعاء من الأهل والجيران ..وبكاء البعض ..وصراخهم

..حتى تنطلق صفارة الأمان وتضيء الأنوار ..وتهدئ العاصفة ..ويعود كل منا إلى شقته ..وتلتف الأذان حول الإذاعة تستمع إلى بياناتها وأناشيدها الوطنية .

ارتسمت هذه الصورة في ذاكرتي ولم تغادرها خاصة وأنها تكررت كثيرا في الأيام التالية ..غير أننا ونحن صغار لم يكن يعنينا أو يخيفنا مظاهر الحرب وطائراتها وصواريخها ..بل على العكس كنا نفرح لها ونسعد ونهلل وكأنها العاب نارية ورمز للبهجة والفرحة ..فيتجمع سويا أطفال العمارة في ركن من شقة جيراننا أثناء الغارة نلعب ونلهو ونحصي أعداد الصواريخ والطائرات من أصواتها ..ونهلل للطلقات الكاشفة وأضوائها ..حتى أصبحت فترة الغارة من أحب الفترات على قلوبنا لما تعنيه من تجمعنا واحتفالنا بالطائرات التي تلاعبنا وتضيء لنا السماء .

وكم من مفارقات مضحكة مبكية حدثت أثناء هذه الغارات المتكررة ..فلا يفوتني أن أذكر جارة لنا عزيزة على والدتي وهى تسرع مع أطفالها بعد سماع صفارة الإنذار وانقطاع التيار الكهربائي ..وتحمل بين يديها وليدها الذي لم يتجاوز عمره شهور قليلة ..وما أن تستقر في مكانها بشقة جيراننا التي نختبئ بها حتى تكتشف أنها تحمل بين يديها وسادة من القماش بدلاً من طفلها الرضيع.. ولم تدرك هذا في حينه من خوفها وتسرعها ..وسرعان أن أخذت تبكي و تصرخ رضيعها الذي تركته بمفرده في ظلام الشقة الدامس .. ويتطوع أحد الجيران بالصعود وإحضار الطفل الوليد وتسليمه لوالدته وهو يصرخ ويبكي ..ومازلنا وبعد هذا العمر الطويل نتندر بهذه الطرفة ونُذكر بها هذا الطفل الذي بلغ من العمر الآن 48 عام .

ولا أنسي يوم أن جاء أحد أعمامي لزيارتنا والاطمئنان علينا ..وكان يدخن سجائر لف "ملفوفة "لها نكهة لم يعتادها الجيران ..وحدث أن بدأت الغارة و انقطع النور وبدا المسلسل اليومي من ضرب الصواريخ وإطلاق القذائف ..ويبدو أن أحد الجيران قد اشتم رائحة دخان سجائر عمي ولم يفطن لنوعها ..وظنها رائحة غاز قاتل تقذفنا به الطائرات المعادية ..فأخذ يصرخ محذرا من الغاز السام الذي سوف يقتلنا جميعا..مدعيا خبرته بهذه الرائحة التي يعلمها جيدا منذ أن كان في خدمة الجيش أيام شبابه ..وحدث هرج ومرج وصراخ وبكاء ووضعنا أقمشة على أنوفنا وأفواهنا وانتظرنا الموت أن يأتينا ببطيء ..حتى انفرجت الأزمة وانتهت الغارة وأضيء النور لنكتشف أن الغاز القاتل ما هو إلا رائحة دخان سجائر عمي .

الذاكرة تحمل الكثير من ذكريات الطفولة التي صبغت نفوسنا ووجداننا لما فيها من تفاصيل كثيرة وما تخللها من أحداث ..فهى فترة غنية بأحداثها وعميقة في أثرها

خاصة وأنها أصابتنا في مرحلة مبكرة من حياتنا وتركت آثارها محفورة في رؤوسنا .

وتحتل لحظة تنحي الرئيس الراحل جمال عبد الناصر مكان الصدارة في شريط الذكريات ..فتلك اللحظة لم أعيها تماما وأدرك مغزاها إلا من خلال تأثيرها على الكبار فينا ..فقد شاهدت أبى وأعمامي وجيراننا وكلهم يحملق في دهشة ويضرب كف بكف ..والبعض منهم يتساءل كيف يحدث هذا ويتخلى عنا في هذه الأيام العصيبة .. وبعد نكسة رهيبة أصابتنا وزلزلت الأرض تحت أقدامنا ونحن في قمة النشوة بالانتصار المزعوم .

رأيت الذهول يسيطر على الجميع وحالة من اللاوعي قد تملكتهم .كمن فقد الحماية وسقط في هوة سحيقة ..ونحن في هذه المرحلة العمرية يكون تأثرنا ردة فعل لحال أهالينا ..فقد شعرت بالخوف والرهبة وظننت أن عبد الناصر سوف يتخلى عنا ويتركنا دون طعام و شراب وأننا سوف نجوع ونتعرى ولا نجد من يطبطب علينا أو نحتمي بقوته .

كانت لحظة قاسية لا يضاهيها عندي سوى خبر وفاة هذا الزعيم الأسطوري ..فذاك الخبر قد اقتلعني من طفولتي وأغرقني في بحر من الأحزان ..فقد أحببت الرجل ونشأت وتربيت على دفيء صوته وقوته ..وبدا لي أسطورة لرجل قادر على فعل المستحيل ..وأننا معه وبه في أمان وأمن تام ..و حياتنا لا تستقيم إلا بوجوده بيننا .. خاصة وأن فترة حكمه قد ارتبطت بخيوط يتصل بعضها ببعض ..فجميع الأناشيد الوطنية التي تغنى بها عبد الحليم وأنشدتها أم كلثوم ارتبطت ارتباط وثيق بشخص الرجل وأعماله حتى باتت وكأنها ملحمة شعبية متكاملة يعيشها الشعب المصري وبطلها جمال عبد الناصر ..فقد تنفسنا هواءه وعشنا أمجاده وتشبعنا بخطبه وكلماته.. وحلمنا معه وفرحنا وحزنا لفرحه وحزنه ..فقد كان محور الحياة في تلك الفترة ..ومع بساطة الإنسان المصري وفقر حياته تعلق بزعيمه وقدوته ومنقذه جمال عبد الناصر ..ورأى فيه أحلامه وأمانيه ومستقبله .. وبرغم مرحلة الطفولة المبكرة التي كنت أحياها ..إلا أنى عشت هذه المرحلة بوجدان طفل شب وتعلق بزعيم وأب ملهم وحماية تفرد مظلتها علينا بقوة .

لذلك كان موت جمال عبد الناصر حدثا فريدا له مكانته في ذاكرتي ..فقد صدمت كما صدم الجميع وبكيته وذرفت الدمع على فراقه ..وعاشت مصر سرادق كبير للعزاء في هذا الرجل العظيم ..وقد ذهبت مع والدي إلى القاهرة لحضور جنازته وبكيته مع الملايين التي خرجت لوداعه ..وكان يوما لا ينسى ولا يمحى من الذاكرة ..وحتى الآن وبعد مرور هذه العقود من الزمن على هذا الحدث فمازالت مشاهد هذا اليوم محفورة في راسي ..وينتابني الشجن كلما تذكرتها .

ذكريات جالت بخاطري وأبت إلا أن أخطها.. وحالة من الشجن تجتاحني وتعود بي إلى عهد مضى وزمن ولى.. ربما هروبا من واقع أعيشه وحياة أحياها وقسوة أيام

مستحدثة تعصف بعقلي وقلبي وتطيح بفكري ووجداني ..وكلما اشتد كربها وأحاطتني خطوبها لا أجد منها مهربا إلا باجترار الماضي والسياحة في أحداثه .. زمن بيضاء صفحته نقية سريرته.. أحتضن سنين طفولته البريئة بنقائها وصفائها .

تجاوزت الخمسين من عمري ..واشتعل الرأس شيباً ..وتركت خلفي أيام وسنين كثيرة..ملأتها صخب وضجيج ..ونقشت في النفس آثارها وذكرياتها ..ونظرت حولي إلى مستحدث الأيام وسرائر الإنسان ..وطفولة مغيبة ..وشيخوخة مهمشة .. وأفكار تضاربت ..وعظماء شمسهم توارت ..وأعاصير اقتلعت حضارات ..وتقلد المصائر قصار الهامات ..وزمن ضاع فيه الإنسان ..واختل الميزان ..فأدركت أني من زمن غير هذا الزمان ..و أيامي ليست هذه الأيام .. وأردت أن أرتمي في أحضان زمن الطفولة وباكورتها الأولى علّه يمدني بطاقة وقوة تدفعني لمسايرة أيام مغايرة لزمن ساده الحب والوئام .

أدرك أن الإنسان وليد البيئة ونبت لهذه الطبيعة ..يدور في فلكها وتترك فيه أثارها.. وتحمل جيناته صفاتها وتقلباتها.. فتجتاح نفسه عواصفها ونسائمها ..وخريفها وربيعها .. ويسودها ظلام ليلها ..وينقشع عن ضوء نهارها .

فربما كانت ذكرياتي عاصفة نفس هبت و سرعان ما تهدىء ..فهكذا الإنسان لا ينفصل عن الطبيعة الأم .. وكما قال الشاعر "وإن تفصل القطرة من بحرها ففي مداه منتهى أمرها"

"تمت "

صرخة جرس

جذبتها من شعرها ..وأخذت أكيل لها الصفعات والركلات ..وهى تترنح بين يداي كخرقة بالية تئن تحت وطأة أوجاعها ..وتتحين الفرصة للهروب من أمامي ..فألاحقها.. وأهوي بكلتا يداي على وجهها وجسدها شبه العاري بعد أن تمزق قميص

نومها وتناثرت أشلاءه ..و تقابل ثورتي المجنونة بصرخات هستيرية محاولة الاستنجاد عل أحد يسمعها ويحاول إنقاذها من بين براثني ..وتتوسل إلي طالبة الغفران .. غير أني كنت قد صُمت أذناي ..ولم أعد استمع إلا إلى صوت الشيطان الذي أخذ بعقلي وذهب بفكري وجعلني طوعا لإرادته وأوصلني لحالة جنونية استنفرت كل قواي العضلية والعصبية ..وجَمحت بي وذهَبت معها بلا عودة ..وفقدت كل سيطرة على اندفاعي نحو تحقيق غايتي والوصول إلى بغيتي ومحاولة الخلاص من هذه الزوجة التي دفعت بي إلى هوة سحيقة من الشك والعذاب .

استنفرت توسلاتها وضعفها صرخات الشيطان داخلي ..واندفعت ألاحقها اصب عليها من غضبة ثورتي..و أمسكت بشعرها المتناثر حول جسدها ألفه حول كف يدي ..وأخذت أجرجرها على أرضية الشقة لألقي بها خارجها.. وهى تحاول أن تتشبث بأي شيء تطوله يديها بلا فائدة .. حتى كادت أن تلفظ أنفاسها بين يداي ..فلم أعد أستطيع تحمل وجودها أو رؤية وجهها بعد الآن .

وأخيرا تجد فرصتها وتنفلت من يدي ..وتندفع بكل قوتها المتبقية لها إلي داخل المطبخ ..كقطة تقاوم الموت بعد أن أسخنتها جراحها..وتقبض بيدها على سكين كبير كأنما أعدته سابقا تحسبا لهذه اللحظة .. وفي ثوانَ معدودة تقفز قفزة خاطفة كنمرة متوحشة.. وتغرس نصل سكينها في قلبي .. وتتوالى طعناتها وضرباتها وهى في حالة هستيرية ترد صفعاتي بطعناتها القاتلة .. السكين يمزق صدري ..وينثر أحشائي ....وأتساقط تحت قدميها وسكينها يقطر دما.. ويخور جسدي وينسلخ فكري وعقلي وأشعر بروحي تنساب من جسدي ..ولم أعد أسمع سوى حشرجة الموت ..يرتفع صوتها وكأنها لحن جنائزي تعزفه الحياة تزفني به قبل أن أفارقها ..لتخرجني من أبوابها وتلقي بي إلى براثن الموت الذي ينتظرني .

بينما الموت يداعب جفوني ويلفني .. شعرت بيدا حانية تربت على وجهي ..وصوت دافئ يتخللني ..أفق يا محمود هل عاودك كابوسك مرة أخري ..وبصعوبة فتحت عيني .. ودقات قلبي تهزني وترجفني ..وقطرات عرق باردة تُندي جبيني..وتتلاحق أنفاسي لاهثة ..وأترنح في غير وعي بين اليقظة والنوم .

اعتدلت من نومي وتناولت بعض رشفات من كوب الماء الذي وضعته على الكومدينو بجواري تحسبا لهجوم هذا الكابوس القاتل الذي اعتاد أن يفاجئني منذ عدة أشهر ..ونظرت بجواري حيث تتمدد زوجتي بشعرها المسترسل وعطرها الفواح

..وقميص نومها الشفاف الذي يتراقص فوق جسدها الغض ..ويأبى أن يقر ويسكن فوق هذا الجسد الفائر.. وقد أزيح جزءه الأكبر ليفشي عن جسدها المرمري حيث بياضه المشرب بحمرة .. يداعبه شعاع ضوء يخترق ظلام الغرفة ويحتضن هذا الجسد النوراني لينقش لوحة فنية خلابة تسلب اللب وتهوى بالقلب .

أخذت أطيل النظر إلي يديها ..تلك اليد التي كانت تلطخها الدماء منذ ثوان وهى تغرس نصل سكينها القاتل في قلبي ..ها هى تربت على وجهي بحنية ونعومة تدغدغ مشاعري وتهيج إحساسي وهى تحاول أن تزيل عني أثار هذا الكابوس المخيف.

استيقظت من نومي ورفعت الغطاء عن جسدي وذهبت إلى غرفة مكتبي ..جلست أرتشف فنجان قهوتي الذي أعددته بيدي.. وحاولت استعادة هدوئي والتقاط أنفاسي التي لازالت تلهث من وقع الهلع الذي أصابني ..وأطلت النظر في لاشيء أمامي.. وغاب فكري يسترجع أحداث شهورا قليلة مضت كان لها الأثر الذي قلب حياتي رأسا على عقب .

لازالت المرة الأولى التي رأيت فيها زوجتي صافيناز محفورة في ذاكرتي ..وخفقان قلبي وأنا أرقبها وهى تقدم لنا زجاجات البيرة في تلك الحانة التي يرتادها المصريون في العاصمة النمساوية فيينا ..فقد عرفتها نادلة في هذه الحانة الشهيرة التي أصر أصدقائي علي مصاحبتي للسهر فيها في إحدى زيارتي للنمسا لإنجاز بعض الأعمال الخاصة بشركتي في مجال الاستيراد والتصدير ..حيث تضطرني ظروف عملي إلى السفر إلى بعض البلدان العربية و الأوربية لإنجاز بعض الصفقات ..أو متابعة شحن البضائع ومحاولة تسهيل إجراءات نقلها من و إلى هذه البلدان .. وتجمعني صداقات كثيرة ببعض المصريين و الأجانب المقيمين في هذه البلاد ..وكثيرا ما أحرص على ملاقاتهم والسهر معهم وتبادل الحديث في الأحوال التجارية والحياة الاجتماعية ..وغير ذلك من الأخبار التي تفرض نفسها على الساحة وتكون محل اهتمام وحديث الساعة ..وكثيرا ما كانت سهراتنا تتجاوز الوقار والأحاديث الجادة إلي بعض الأحاديث اللاهية والمغامرات والشطحات الشخصية .

ذهبت بصحبة أصدقائي إلى حانة المصريين كما يطلقون عليها في فيينا .. فكما علمت أن معظم روادها من العرب ..ونادرا ما يرتادها أهل النمسا أو الأوربيين ..وقد ذاع صيت هذه الحانة ..حتى أصبحت ملتقى يجتمع فيها المصريون على

صوت أم كلثوم.. وطرب عبد الوهاب ..ويعود بهم الحنين لأيام اشتاقوا إليها ..وكلمات نقشت ذكرياتها في قلوبهم .

مضي على وجودي بالنمسا أكثر من تسعة أيام قضيتها في عمل مضني حتى استطعت أن أنجز ما جئت من أجله ..وتأهبت للعودة إلى مصر لمباشرة أعمالي هناك ..ولذلك لم أجد غضاضة أن أستجيب لنصيحة أصدقائي وأذهب معهم إلى هذه الحانة ..أزيل عن كاهلي تعب الأيام الماضية ..وأحاول أن استعيد حيويتي ونشاطي ..وما أن وطأت قدمي صالتها الفسيحة حتى وجدت أعدادا كبيرة من الرواد تكاد تشغل كل حيز فيها ..و دخان السجائر والشيشة يعبئ المكان ويحوله إلى فضاء ضبابي ..و ضحكات رنانة تأتي من أماكن متعددة في أنحاء الحانة ..ونساء أوربيات وعربيات يتوسطن بعض الموائد ويتجمع حولهن عدد من الشباب وقد وضعت أمامهم زجاجات الخمر وأكواب البيرة ..وألمح بطرف عيني بعض الرجال الوقورين وقد انزووا في أحد الأركان واندمجوا معا في نقاشات جادة وقد تراصت أكواب عصير البرتقال على منضدتهم ..وفي ركن آخر مجموعة من الشباب والفتيات يتراقصوا سويا على موسيقى صاخبة وسريعة وهم يتمايلون ويأتون بحركات تشنجية وكأنهم ينفضون عن أنفسهم شرقيتهم التي أعيتهم طويلا ويبدو أنهم قد أبوا الاحتفاظ بها على الأقل في تلك الحانة المصرية ذات النكهة الأوربية .

كنت قد أعتدت على مثل هذه الحانات في سفرياتي المتعددة التي أقوم بها من حين لأخر..لذلك لم تستوقفني كثيرا هذه المشاهد ..ولم تروق لي هذه الحانة ..وكدت أن أختنق تحت وطأة الدخان الذي يملأ سماءها فتبدو وكأنها ضُربت برياح الخماسين التي تنثر ذرات رمالها في العيون فتسيل دمعها .

اتخذت قراري بعدم إطالة المكوث في هذه الحانة وترك أجوائها الغير محببة إلى نفسي ..وعزمت تناول مشروبي واستئذان أصدقائي ومغادرة هذا المكان إلى الفندق الذي أقيم فيه ..وربما أمكنني التسكع في بعض شوارع النمسا وارتياد بعض محلاتها فلعلي أستطيع شراء بعض الهدايا التي أوصتني بشرائها زوجتي الحبيبة ..فكم أشتاق إلى عودتي لمصر والراحة في بيتي بعد عناء عمل أطال بي المقام في العاصمة النمساوية ..وعموما فقد هانت ..فربما يوم أو يومين على الأكثر وأغادر إلى بلدي وبيتي.. أحتضن بناتي وأسعد بابتساماتهن وفرحهن بوصولي والهدايا التي أحملها لهن ..وأعيش لحظات حب ودفيء بين أحضان زوجتي أتناسى معها تعب وشقاء الغربة..والعمل المضني الذي يحرمني من وجودي بينهن كل فترة من الزمان .

جلست أستمع إلى صوت أم كلثوم يأتيني خافتا وسط هذا الضجيج ..في انتظار الطلبات التي تطوع أحد الأصدقاء بدفع حسابها ..و طلبت زجاجة من البيرة عزمت أن أحتسيها وأغادر المكان سريعا ..غير أنه قد حدثت المفاجأة التي غيرت

سير حياتي وأوصلتني إلى ما أنا فيه الآن وما أعانيه كل ليلة من هجوم هذا الكابوس الليلي الذي أرق نومي .

فقد انتزعني الواقع من عالم الخيال الذي كنت أسبح فيه بأفكاري في بلدي مع وزوجتي وبناتي ..وإذا بصوت ملائكي يأخذ بالعقل ويذيب القلب ..وفتاة ممشوقة القوام غاية الروعة والدلال ترص الكؤوس على الطاولة ..ثم تفرغ زجاجات البيرة التي طلبناها ..وتقدمها لنا بإحساس يقطر رقة وعذوبة ..وأنا مبهوت مغيب الوعي في هذا الجمال الرباني وتلك المخلوقة الملائكية وهى توزع نظراتها وبسماتها على الجلوس جميعا ..وقد بادلها بعض الأصدقاء قليل من كلمات الشكر..والبعض الأخر داعبها ببعض كلمات الغزل ..وبقيت أنا لأنطق بنبت كلمة ..فقد تحجرت الكلمات على لساني وضاع قاموسها ..وما هى إلا لحظات حتى فارقتنا لتتابع طاولة أخري وزبائن آخرين ..فهى إحدى النادلات في هذه الحانة الكبيرة ..وتعمل على خدمة زبائنها وتلبية طلباتهم ..وتجتهد لكسب ودهم ..بتوفير خدمة جيدة ..وفي بعض الأحيان بكلمة أو بسمة ..وربما تتجاوز بمداعبة أو غزل .

أخذت أنظر إليها وهى تغادرنا وقد أعطتنا ظهرها متوجهة إلى طاولة بجوارنا ..وقد أسرني شعرها المسترسل خلف ظهرها بلون سواد الليل .. يتجاوز خصرها ويكاد يطول أردافها اللينة المتمردة على ثيابها ..ليسدل عليها ستارا كأنه سياج حريري ضرب حول محمية طبيعية يقيها النظرات الجائعة والعيون المتطفلة التي ترصد اهتزازتها وهى تعلن عن جمالها الفتان عندما تخطو صاحبتها في زيها القصير الذي يعلو ركبتيها ولا يكاد يغطي إلا جزءا يسيرا من جسدها .

كنت قد أعتدت على رؤية الكثير من النادلات في الحانات الكثيرة التي ارتدتها ..ولم تستوقفني إحداهن على الرغم مما كن يتمتعن به من حُسن ودلال ..غير أنى لا أدرى ماذا أصابني عند رؤيتي هذه الفتاة .. فقد شغف بها قلبي ..وهامت بها روحي وشعورا تملكني بقربها مني و رباطا ما سوف يربط بيننا ..وقصة سوف تسطر كلماتها حكايتنا .

حاولت أن لا يقرأ أفكاري أحد من الأصدقاء..وتعمدت أن أدخل معهم في حوار وأتجاذب أطراف الحديث ..غير أني كنت أجاريهم بلساني .. وعقلي وقلبي عنهم غائبين .

كان مقدرا لسهرتنا أن تمتد ساعتين أو أكثر قليلا ..وكنت أنتوي الذهاب مبكرا وتركهم يكملون سهرتهم على أن يلحقوا بي أو نتقابل في موعد آخر ..ولكن بعد

ظهور صافيناز وهو اسمها الذي عرفته فيما بعد ..لم يعد للوقت عندي حساب ..بل وحاولت أن أستبقي أصدقائي أطول فترة ممكنة ..حتى أنه في نهاية المطاف تركتهم يرحلون وتعللت لهم أني أعاني بعض الملل والوحدة وسوف أسهر قليلا ثم أتبعهم ..وهكذا استطعت أن أتخلف عن العودة معهم ..وظللت في الحانة حتى ساعات الفجر الأولى ..أملئ عيني بالنظر إلى جمال صافيناز وجسدها المتلألئ في الأضواء الخافتة التي تتردد ألوانها بين ألوان الطيف المختلفة و تنعكس على جسدها الغض لتصنع منه لوحة جمالية حية تجوب أركان المكان وكأنها عروس في ليلة عرسها توزع بسماتها على جميع الحضور وهى في كامل زينتها وبهائها .

غادرت الحانة في ساعات الصباح الأولى ..ولم أجرؤ على مبادلتها الحديث أو الرد على مزحها معي وهى تلبي طلباتي التي أطلبها تباعا ..ولم تطاوعني عيني أن تلتقي بعينيها وأنا أري فيهما هذه النظرة الجريئة والنداء الخفي الذي يشعل جسدي ويولد داخلي رغبة مكبوتة .

تواصلت مع أصدقائي في اليوم التالي وطلبت منهم أن نقضي سهرتنا في نفس الحانة ..وحاولت أن أغريهم بها ..فأخذت أعدد لهم مزاياها وفضلها على غيرها من الأماكن التي يمكن أن تجتذبهم للسهر ..وظللت أحاول إقناعهم حتى وافقوا ..وذهبنا جميعنا إلى ذات المكان ..ورأيتها وهى قادمة نحونا ..تسبقها موجات من الدلال ..وتحوطها مدارات من الجاذبية التي تأخذك على غرة وتلقي بك في بركان جسدها الثائر لتصهرك حممه وتلهب غرائزك حرارته المستعرة .

حاولت جاهدا أن أنتشل نفسي من وقوعي في فلكها و مقاومة جاذبيتها الطاغية .. واستطعت بعد جهد جهيد أن أبادلها بعض الكلمات والنظرات ..وما أن صعقني بريق عينيها حتى قفز قلبي وتلاحقت نبضاته حتى كادت أن تطغي على أصوات الموسيقي الصاخبة التي تحيط بنا من كل مكان ..و ينتفض جسدي وكأني محارب أخطأه سهم مرق بجانبه فأصابه الذعر ولم يتمالك نفسه من هول ما ترك من أثر ..وما أن تجاوزه حتى وقف يلتقط أنفاسه ويستعيد نظم نبضات قلبه .

جاهدت نفسي كثيرا حتى لا تفضحني نظراتي ..وأثير تهكم أصدقائي وسخريتهم ..و في الوقت نفسه حاولت أن الفت نظر فتاتي إلى وجودي واهتمامي بها ..غير أن

حالتي يبدو أنها فاقت تصوري وقرائها أصدقائي وأدركوا ما يجيش بصدري ..وحدث ما كنت أخشاه وبدأت تعليقاتهم اللاذعة ونكاتهم الساخرة..وعلى الرغم من أنها مزحة أصدقاء اعتدنا عليها كثيرا ..بل ومارستها أنا على الكثير منهم سابقا ..إلا أني شعرت بالضيق وبدا التأفف يتسرب إلى نفسي .

عزمت على السهر بمفردي في حانة فتاتي ..وعمدت عدم اصطحاب أصدقائي معي حتى لا أكلف نفسي عناء التهرب من نظراتهم أو التعرض لتهكمهم ..وأرجأت موعد عودتي إلى مصر بعد أن تذرعت ببعض الحجج لزوجتي وبناتي وأخبرتهم أن الأعمال التي جئت من أجلها لم تنجز بعد وأني بحاجة إلى بعض الأيام الإضافية حتى أتممها .

أعتدت السهر في حانة المصريين ..وتعودت أحاديث صافيناز وأنسها..واقتربنا بعضنا من بعض بعد أن تعارفنا وبدأت تشعر بصدق إحساسي نحوها .

حاولت التقرب منها أكثر ..فطلبت منها أن نلتقي ونسهر سويا في يوم عطلتها في أي مكان تفضله وتختاره ..وقد كان.. وسهرنا معا وتحدثنا طويلا وقصت على حكايتها ..وعلمت الكثير عن حياتها .

عرفت أنها ابنة لمصري من أحد الأحياء الشعبية العريقة ..وقد سافر منذ عهد بعيد وتنقل بين عواصم الدول المختلفة بحثا عن الرزق وطمعا في وظيفة أو عمل يوفر له حاجته ويعينه على متطلبات الحياة ..و تعرف في إحدى سفرياته على والدتها اللبنانية الجنسية وصار إعجاب بينهم انتهى بالزواج ..وكانت هى ثمرة هذه الزيجة التي لم تصمد طويلا في وجه الزمن ..فاختلاف الثقافات ..والتوجهات أسرعت بالنهاية المحتومة وكان الانفصال وذهاب كل منهم لحاله ..وأخذها والدها وعاد بها إلى مصر لتعيش بين عائلته وأهله ..وتركها مع والدته وشقيقاته ..وسافر لممارسة هواية الترحال والتنقل من بلد إلى أخر بحثا عن عمل تارة ..وعن حب جديد تارة أخري ..حتى وافته المنية وهو في غربته.. وهي لا تكاد تعلم عنه و عن حياته الكثير ..وقد سمعت حكايات وروايات بعد وفاته تشبه الأساطير حول أعماله وزيجاته المتعددة ..غير أنها لم تكلف نفسها مشقة البحث والتقصي عن صحة هذه الأخبار ..فقد رأت أن هذا شيء لا يعنيها كثيرا ولن يزيد أو يقلل علمها أو عدم علمها به .

واستفاضت في سرد الروايات عن معاناتها والوبال الذي جلبه عليها جمالها في الحي الشعبي الذي كانت تقطنه جدتها وعماتها ..حتى أصبحت مطمع لشباب الحي وشيوخه ..وهدف لكلمات الغزل ..العفيف أحيانا ..والسفيه أحيانا أخري .. وكثيرون

طرقوا بابها لخطب ودها وطلبها للزواج ..غير أن طموحها وزهدها في حياة هذا ألحى الشعبي قد تغلبا عليها و دفعاها لمقاومة رغبات أهلها في تزويجها والخلاص من مشاكلها ..وقررت الهروب والسفر بعيدا حتى تنال ما تتمناه من رفاهية العيش وتحقيق طموحاتها ..والخروج من هذا الجحر الضيق إلي سماء الدنيا وسعتها ..وجاءت إلى النمسا بصحبة صديقة تعرفت عليها خلال دراستها الجامعية ..تقيم عائلتها منذ زمن بعيد في العاصمة فيينا ويعمل والدها في التجارة مع شريك له ويزور مصر كل فترة من الزمن قد تطول وقد تقصر ..وها هى قصتها قد اكتملت بعملها منذ أكثر من ثلاث سنوات في حانة المصريين ..ذلك العمل الذي استطاع والد زميلتها أن يلحقها به حتى يمكنها اكتساب قوت يومها ومواجهة الحياة الأوربية القاسية .

توطدت العلاقة بيننا .. وصارحتها بشعور يتملكني نحوها غير أني لازلت لا أعرف توصيفه .. ولكني اشعر أني بحاجة إلى وجودها بجواري ..وبادلتني هي أيضا نفس الشعور ..وتركنا حالنا للأيام تفعل بنا ما تشاء .

ودعتها وغادرت النمسا إلى مصر لمباشرة أعمالي والعودة لمنزلي وبناتي على أمل العودة وتجدد اللقاء ..وتبادلنا أرقام الجوال على عهد التواصل سويا كلما سنحت الظروف .

عدت إلى مصر بوجه غير الذي غادرتها به ..فقد تبدلت أحوالي وتغيرت مشاعري تجاه كل ما يحيط بي ..وكانت زوجتي أول من لمس هذا التغير ..وكثيرا ما سألتني عن السبب .. وكنت أجيبها إجابات فاترة أرجعها إلى الإرهاق في العمل ..ومشاكله التي تواجهني ..وحاولت كثيرا أن أبدو في صورة طبيعية ..غير أني ومع ما أكابده في سبيل ذلك لم استطع أن اخفي كثيرا من التغير في شخصيتي وسلوكي ..وبدأت اخذ منحى أخر في حياتي زادت معه عصبيتي ..ولم أعد أتقبل مداعبات زوجتي وحديثها معي ..وكنت أقابل أفعالها بجفاء وعصبية شديدة ..حتى أن بناتي قد لاحظوا ذلك وحاولوا أكثر من مرة التدخل لمعالجة بعض المواقف التي تثور حولها المشاكل مع والدتهم ..مما حذا بي أخيرا إلى محاولة الهروب من البيت وقضاء الوقت الأكبر خارجه هروبا من فظاظتي المفرطة التي بدأت أضيق بها والتمس الأعذار لزوجتي في تحملها .

على الجانب الآخر تواصلت مكالماتي الهاتفية مع صافيناز ..والتي كنت أنتظرها وكأنها شحنة الحياة التي تمدني بالقوة والطاقة اللازمة لاستكمال يومي حتى موعد المكالمة التالية .

وهكذا استمر الحال أكثر من شهرين ..حتى واتتني الفرصة للسفر مرة أخرى لملاقاة صافيناز ..وكان لقاءا حارا لم نستطع أن نتمالك فيه أنفسنا وباح كل منا

للآخر بمكنون شعوره ..وأدركت كنه إحساسي بها واني مدله في حبها وأهيم بها عشقا .
أسبوعا كاملا قضيناه سويا أيقظ بداخلي الإحساس بالحياة ..وكأننا نحلق بأجنحة فضية فوق السحاب بعيدا عن الأرض بآلامها وأوجاعها .

تكررت زياراتي للنمسا بعد أن وجهت جزء كبير من نشاط شركتي للعمل في فيينا حتى تتاح لي فرصة السفر والبقاء بجوار حبيبتي صافيناز ..ومضت الأيام سريعة حتى قاربت على العام منذ أن رأيت صافيناز وتعلق قلبي بها ..وأصبحت غير قادر على بعادها ومفارقتها .

أخذت قراري بعد تفكير طويل وحسمت أمري بضرورة زواجي من صافيناز حتى اضمن بقاءها معي وسعادة قلبي بقربها .. لم أتردد كثيرا عندما اتخذت هذا القرار فقد وجدت الظروف مواتية والأمور تسير سيرا طبيعيا ..ويمكنني الزواج بصافيناز في النمسا والإتيان إليها كل شهر أو شهرين على الأكثر ..وفي الوقت نفسه احتفظ بزوجتي التي أحبها وتربط العشرة بيننا في مصر ..فكلاهما بعيدتان عن بعضهن ولا يوجد ما يعكر صفو العلاقة بينهن حتى وإن علمت زوجتي بهذه الزيجة .

استراح عقلي لهذا التحليل المنطقي وبدأت في اتخاذ الخطوات الفعلية لتحقيق حلمي والفوز بقلب وجسد صافيناز حبيبتي التي ملئت حياتي وزادتها بهجة .

أبلغت بعض أصدقائي المقربين ممن حضروا لقاءنا الأول في حانة المصريين بقراري الزواج من صافيناز .. غير أني فوجئت بما لم أتوقعه ولم يدر بخلدي ..فقد قوبل قراري برفض جماعي وقاطع من هؤلاء الأصدقاء ..حتى أن بعضهم قد احتد بكلامه ووصف صافيناز ومثيلاتها بصفات وألفاظ جعلتني أستشيط غضبا وأطلب منه الاعتذار أو المقاطعة ..وحاول البعض الآخر أن يترفق بي في نصحه وقول ما قاله صديقي المحتد ولكن بطريقة تختلف في اللفظ وتتفق في المعني ..فقد اتفقوا جميعا أن صافيناز مثلها مثل النادلات وبنات الحانات فهى ملك لكل الرجال ..ونظراتها ومداعباتها للجميع وليست مقصورة على أحد بعينه ..وإنهن يُجدن التمثيل لإيقاع الرجل في حبهن حتى يحصلوا على مرادهم ثم يتركوه لأخر وهكذا هى حياتهم التي تعلموا فنونها وملكوا أدواتها ..وأنني لن أكون الحالة الأولي أو الأخيرة في حياة صافيناز ..حتى أن أحد أصدقائي قد تجرأ ووصفني بأني حال زواجي منها سأصبح رجل ديوث .. وزاد عن ذلك وعرض أن يأتيني بصافيناز مقابل بضعة دولارات يضعها في يدها .
وهنا انتفضت في وجههم جميعا ..منهيا الحديث بيني وبينهم وقد تملكني الغضب واحتد صوتي في مواجهتهم ..فما كان منهم إلا أن قاموا بملاطفتي ومحاولة تهدءة الأمور بعدما رأوا تمسكي وعدم زحزحتي عن قراري الذي اتخذته .

على عجالة تم الترتيب وإنهاء إجراءات الزواج ..وانتقلت بها إلى شقة في أحد الأحياء القريبة من عملها ..بعد أن أصرت على أن عدم ترك العمل الذي تحبه والذي قضت به أحلى سنين عمرها على حد قولها ..وتذرعت بغيابي الذي سوف يطول في مصر بالشهور حتى أعود إليها مرة أخري ..و خوفها من الوحدة ..ولابد من وجودها بعمل يدمجها مع المجتمع وتستطيع أن تمارس حياتها بصورة طبيعية وتجد ما يؤنس وحدتها ويملئ الفراغ الذي سوف أتركه لها وأنا بعيدا عنها .

تزوجنا وقضينا معا أياما خارج الزمان والمكان ..عشنا عالمنا الخاص بعيدا عن دقات الساعات ودورات الزمن ..وعرفت معها معني أن يكون بحياتك أنثي تحبها وتحبك ..تعطيك وتفيض في عطاءها ..وترشف من خمرها حتى الثمالة .

مضت الأيام سريعة ودقت ساعة الزمن ..و تركت حضنها الدافئ وعدت إلى مصر أباشر أعمالي وأبوتي ووظيفتي الزوجية بغير روح أو إحساس ..فقد تركت كل مشاعري حيث توجد حبيبتي صافيناز ..وقضيت أيامي أحسب ساعاتها ودقائقها حتى ألتقي ثانية بمحبوبتي حيث الحياة والانتشاء بالحب .
مضى أكثر من عامين على زواجنا ..و زاد حبي لها وتعلقي بوجودها في حياتي ..وكلما ابتعدت جذبني حنيني وشوقي إليها لمعاودة الرجوع ..حتى أدمنتها ..وسرت في دمي تخدر جسدي ووجداني ..وجعلت مني رحالة بين مصر والنمسا التي نقلت إليها معظم أعمال شركتي .

عمدت في إحدى المرات أن أعد لها مفاجأة تسعدها ولا أخبرها بموعد وصولي للنمسا ..وذهبت مباشرة من المطار إلي الحانة التي تعارفنا فيها ..وجلست في مكاني انتظرها وقلبي يكاد يقفز من فرحة لقاءها ..ولاحت منى لفتة للخلف عن غير قصد لأري محبوبتي زوجتي تداعب أحد الشباب في ركن هادئ بعيد عن طاولتنا التي اعتدنا الجلوس بها .

أخذت أرقبها وجسدي ينتفض ويرتعد غضبا ويكاد الدم يتفجر في عروقي ..رأيتها تتمايل وتتضاحك وتغمز بعينيها في دلال ..والشاب يبادلها الضحكات والنظرات ذات المعاني التي لا تخفى علي أحد ... استدارت فجأة لتجد عيني في عينيها ..ويصيبها حالة من الارتباك ثم سرعان ما أن تتماسك وتأتي نحوى مهرولة مرحبة وقد تهلل وجهها ورسمت البسمة على شفتيها ..وما أن رأتني جامد الوجه شاخص النظرات حتى أدركت أني قد شاهدت مداعباتها لهذا الشاب ..وما يعتمل في نفسي ..فأثرت السكينة والهدوء ورجتني أن نكمل كلامنا وعتابنا في البيت .

حَاولت أقناعي أن ما رأيته كان من واجبات وظيفتها ..وأنه لا يربطها شيء بهذا الشاب أو غيره ..وهذه طبيعة عملها التي عرفتها وتزوجتها وأنا عليم بها ..ولا داعي لافتعال الأزمات واختلاق المشاكل وتعقيد الأمور .

تظاهرت بتصديق حديثها غير أن الشك كان قد أخذ طريقه إلى قلبي ..وبدأت أرى بعض أمورها وتصرفاتها بصورة غير التي كنت أراها سابقا .. وتردد في عقلي صدى كلام أصدقائي واعتراضهم على زواجنا وبدا وكأنه يصم أذناي .

زاد الشك في قلبي ..واستدعيت من الأحداث والمشاهدات ما جعل الشك يكاد يقارب اليقين ..غير أن ستارة الحب يبدو أنها قد حجبت عني الرؤية كاملة ..وأوقعت بي في خطيئة الزواج منها ..ويبدوا أن نبؤه صديقي قد تحققت ..وقد أصبحت بحق ديوث .

يا للهول ..شبح الخيانة يتجسم أمام عيني ..وأراه في كل لفتة من لفتاتها ..وكل همسة من همساتها ..ولكن كيف غاب عني ذلك قبل هذا اليوم ..وهل كنت أنتظر حديثها مع هذا الشاب في الحانة حتى يوقظ في نفسي كل هذا الشك القاتل .

أخذت قراري أن أطلقها وأتركها لحال سبيلها ..ولكن قلبي لم يطاوعني فأنا لازلت أحبها ..وأسوق الحجج والبراهين لإقناع نفسي ببراءتها من هذه التهمة القاسية ..وأتعلل بعدم وجود دليل قوي بين يدي يثبت التهمة عليها..وأحاول جاهدا أن أجد لها المبررات حتى أنتشلها من الوقوع في بئر الخيانة .

استطاعت بذكائها أن تقرأ أفكاري وتعلم ما يدور بخلدي ..فحاولت زرع الثقة في نفسي من جديد ..وإبعاد شبح التفكير في خيانتها عن عقلي..غير إن الشك قد استقر في قراره نفسي و أخذ ينمو و يزداد وتحول الصراع بين قلبي وعقلي إلى كابوس قاتل يهاجمني في نومي..وأصحو فزعا على طعنات سكينها أصارع الموت ويصارعني .

قضيت معها أياما وعدت إلى مصر وقد تملكني الشعور بخيانتها ..وكأنه نصل سكين مسموم غرس في لحمي ..وسرى سمه ينهشني نهشا .

مضت أياما وأنا على هذا الحال ينتابني شعور قاتل ولا أكاد أعي ما أفعله ..وقد تخبطت حياتي ..وتشتت فكري وكياني .

وبينما أنا على هذا الحال فوجئت في إحدى الأمسيات وأنا عائدا إلى منزلي ..برسالة على جوالي تخبرني أن صافيناز زوجتي تخونني وأنها تقيم في غيابي مع شاب في شقته في حي مجاور من سكننا ..و ذكرت الرسالة عنوان هذه الشقة .

ذهب عقلي واهتزت الرؤى أمام عيني ..وفقدت توازني وإدراكي للأمور ..فقد جاءتني البينة والدليل الذي يؤكد شكوكي ..ولم يتبقى سوى التحقق من صدق هذه الرسالة حتى أتيقن تماما من خيانة صافيناز .

أسرعت بحجز تذكرة على أقرب رحلة للسفر إلى النمسا .. وظللت متيقظا حتى موعد الطائرة وقد جفاني النوم .. وما أن حطت قدمي أرض المطار حتى أسرعت إلى مكتبي وأخذت منه مسدسي وحشوته بالرصاص وانطلقت مسرعا إلى العنوان المكتوب لعلى أجدهما معا فأفرغ فيهما طلقات المسدس ..وأنتقم لشرفي الذي لوثته هذه الفاجرة .

وقفت تحت البناية التي ذكرت عنوانها الرسالة ..وكانت الساعة قد تجاوزت الثالثة بعد منتصف الليل ..وسيل من مياه الأمطار يفيض على المدينة وشوارعها ..ورياحها الباردة تضرب وجهي بعنف وأنا أنظر إلى الدور العاشر ..حيث يقطن هذا الشاب .. فربما تكون الآن في أحضانه يتبادلان القبلات ويتضاحكان ويشربان على نخب شرفي وكرامتي .

تركت المصعد وصعدت درجات السلم.. وأفكاري تسابقني تكاد تدق رأسي ..وتتوارد الخواطر متضاربة في عقلي ..وأمنية تشرد في نفسي ..فربما غيرة صديقة دفعتها أن تكيد لها وتدبر أمر هذه الرسالة ..وربما شكوكي وظنوني بها درب من دروب الخيال .

تحسست مسدسي وأكملت صعود درجات السلم حتى وصلت الدور العاشر وهيأت نفسي لمفاجأة تنتظرني ..تسارعت معها دقات قلبي ..وارتعدت مفاصلي ..وتلاشت أمامي الرؤى.

ضغطت أصبعي على جرس الباب ..وترددت صرخات رناته في أذني .. وكلما خبا رنينه زدت دقه .. لتنطلق صرخاته تشق سكون الليل ..وأخذت أدقه وأدقه ..ثم ضغط بكلتا يداي مفتاح الجرس ولم أرفعهما .

"تمت"

الكاتب

نصر سليمان محمد

أديب وكاتب حر

كاتب حر في عدة مواقع لصحف مصرية :-

- ❖ صحيفة اليوم السابع
- ❖ صحيفة الشروق
- ❖ صحيفة صدى البلد
- ❖ صحيفة المساء
- ❖ صحيفة صوت الحياة
- ❖ صحيفة صوت الشارع
- ❖ يعمل في تحرير صحيفة قبس السعودية
- ❖ عمل في قناة العقارية بدبي
- ❖ عمل بصحيفة الرأي العام
- ❖ عمل بصحيفة الحياة
- ❖ له ديوان "فراق " – دار المعارف
- ❖ مجموعة قصصية بعنوان "رصاصة الرحمة – دار المعارف

الفهرس

إهداء.....2

مقدمة 3

صرخة 4

عفريت المقابر 17

ميراث الموت 30

إبحار في الماضي 44

صرخة جرس 58